بريطانيا ومصـــر
بـــين
التسوية وتولية عباس الأول
١٨٤١ ـ ١٨٤٨
فى
ضوء الوثائق البريطانية

د٠ لطيفة محمد سـالم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب ـ بنها

مقـــدمة :

تواكبت الأحداث العالمية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاســع عشــر ، ودخلت مصــر فى نطــاقها ، فقد رسمت فرنســا مخططها وقامت بحملتها على مصـــر عــام ١٧٩٨ لتحقق أهــدافا أهمها تركيز نفــوذها فى تلك المنطقــة لتكون نواة للامتــداد شرقا واقصاء الوجود البريطانى من الهند ، ولكن أحبطت مساعيها فى هــذا الصدد ، وكانت النتيجة ادراك بريطانيا لخطورة تهديد مصالحها وقيامها بحركة رد فعل مضادة تمثلت فى العدوان على مصر ، ورغم أنها لم تتمكن من الحصول على أية مكاسب اذ أصابها الفشل ، الا أنها خضعت لنــداء البحث عن مختلف الطرق لتمكين نفسها من السيطرة على مصر باعتبارها

مفتاح الشرق الذى تتوطن فيه طموحاتها وتطلعاتها ، أيضا فقد أسرعت لتطويقها بالاستيلاء على جزيرة بريم فى مدخل البحر الأحمر عام ١٧٩٩ والتودد والتقرب لأصحاب النفوذ فى ساحل الجنوب العربى والخليج العربى •

وفى ذلك الوقت كان طريق رأس الرجاء الصالح قد فقد أهميته نظرا لاعتبارات متعددة ، وأصبح الطريق عبر مصر موضع الاهتمام ، وزاد الانبهار بالشرق ، اذ قامت الثورة الصناعية التى أسفرت عن تقدم فى الآلات ، وزيادة فى عدد العمال ، وحدوث ما عرف باسم الانتاج الضخم ، واتساع نطاق العرض ، وارتفاع معدلات رؤوس الأموال ، مما نتج عنه الحرص على توافر الأسواق والمواد الخام والعمل على استخدام رؤوس الأموال ، وبالطبع كانت بريطانيا فى أشد الحاجة للتنفيذ خاصة تجاه الهند • وجاء استخدام قوة البخار عام ١٨٠١ فى تسيير السفن وتحريك آلاتها لتحدث انقلابا شاملا فى النقل البحرى ، وحملت بريطانيا اللواء فى هذا المجال حيث طورت بناء السفن وعملت على المزيد من تقدم أسطولها ، كما شجعت الشركات والأفراد على المضى قدما فى محاولاتهما مماسة استخدام البواخر بين الجزر البريطانية والهند عن طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر • وعليه يتبين أنها عقدت العزم على أن تترصد لمصر ، وتبعد عنها أية تأثيرات خاصة الفرنسية ، بعد أن لمست عن قرب أهميتها عندما أكدت الحروب النابوليونية امكانية عرقلة مواصلاتها مع الشرق ، أيضا فقد نتج عن تلك الحروب توطيد مركزها فى البحر المتوسط ، هذا بالاضافة الى وقوع مالطة وجبل طارق فى قبضتها •

ولم يكن الطريق سهلا أمام بريطانيا ، فهناك على رأس الحكم فى مصر شخصية محمد على القوية والذى تمكن بسياسته من الوقوف أمام أطماعها ، وكان له أسلوبه تجاه الدول بما فيها الدولة العثمانية ، وقد نجح فى استغلال المنافسة البريطانية الفرنسية ليروض الدولتين ويحقق

أغراضه • وأحست بريطانيا ببوادر النفوذ الفرنسى لدى الوالى ، ومن هنـا بدأت فى محاولاتها لايجاد نـوع من الموازنة ربما يقـودها الى ما يجعلها تتفوق على غريمتها • وأصبح من الصعب تنفيذ التخطيط المحكم بسهولة أو بسرعة نظرا للاسلوب الذى اتبعه باشا مصر داخليا وخارجيا•

كان النظام الاقتصادى الذى وضعه محمد على وتمثل أسـاسا فى الاحتكار قد شكل عقبة أمام التجارة البريطانية التى هى بمثـابة الركيزة الأساسية للاقتصاد البريطانى ، ولذا انتهجت بريطانيا كافـة الوسائل لضرب هذا النظام حتى تكسر به السـياسة العـامة لمصر ، واستمرت تكافح سنوات وسنوات لتقصيه جانبا ، ولكنها لم تنجح تماما الا مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر • أما فى المجـال الخارجى فكانت أكثر توفيقا ، فقد ساعتها الانتصارات التى حصـل عليها حاكم مصر فى شبه الجزيرة العربية ، وخشيت من توطد سلطته على الجنوب العربى والخليج ، أيضا أثار رييتها امتداد نفـوذه الى جنوب وادى النيل وسيطرته على السودان ، ثم حركها الفـوز الذى أحرزه فى المورة ، فدفع بها لخلف أوربى للوقوف أمام قوته ، وأسهمت بأسطولها فى موقعة نفارين مما أسفر عنه تحطيم الأسطول المصرى ، وتحرقت غيظا من السيطرة المصرية على كريت ، وازداد الأمر سـوءا بتلك الخطوة التى أقدمت عليها فرنسا باحتلال الجزائر ، اذ اعتقدت أن المطامع الفرنسية بدأت تأخذ طريقها لتحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية • فكان ذلك عاملا ملحا لمزيد من صب الاهتمـام على مصر والحيلولة دون نفاذ المطامع الفرنسية فيها أو اغداق مزيد من السلطة على واليها •

وتعقدت الأمور أمام بريطانيا باستيلاء محمد على على الشام ، وبالهزائم التى منيت بها القوات العثمانية على يد ابراهيم ، وبالتقدم السريع صوب استنبول ، وبالتدخل الروسى ، لمـا فى ذلك جميعه من خرق لمبدئها الخاص بالمحافظة على أملاك الدولة العثمـانية — الذى

جمعها بفرنسا — ولذا راحت تعد نفسها بتأن لمواجهة الموقف ، وكانت صاحبة اليد فى جعل السلطان يوافق على صلح كوتاهية ، لكنها تلقت ضربة قوية بعقدة المعاهدة الدفاعية الهجومية « هنكار اسكله سي » مع قيصر روسيا ، ورغم هذا فهى ترفض مشروع محمد على الخاص برغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وعندما تجدد القتال بين الطرفين الأخيرين وانتهى بانتصار الجانب المصرى فى نصيبين ، ألجأها هذا الوضع لسرعة التصرف فى وقت شعرت فيه بتفوق النفوذ الفرنسى وخشيت من استئثاره بوالى مصر ورغبت فى وأده ، كما أنها أوجست خيفة من التقدم الروسى ، أيضا تلهفت على أن تكون لها امتيازات فى مصر تخدم مصالحها •

ودخل فى اطار البرنامج البريطانى المعد الاستيلاء على عدن لاستكمال التحكم فى الطريق الملاحى للبحر الأحمر ، وضرب النشاط التوسعى المصرى الذى أقدم على تصرفات عدتها بريطانيا مضادة لمصالحها ومهددة لمواصلاتها الى امبراطوريتها ، وأسفرت فى عدائها لمحمد على ونظامه ، وصممت على تفتيت سلطانه لتحقيق مآربها ، ومضت فى العمل منتهزة الأزمة بينه وبين السلطان ، وقام سفيرها فى استنبول بدوره الناجح فى هذا الصدد ، وخدمتها الظروف بتخلى فرنسا عن مساندتها لباشا مصر فى مطالبه ، وراحت تعزز قطع أسطولها فى شرق البحر المتوسط • وما لبث الأمر أن توفى السلطان محمود الثانى وتولى الخلافة السلطان عبد المجيد ، ورأت الدول الخمس — فرنسا ، بريطانيا ، بروسيا ، النمسا ، روسيا — التدخل لدى الباب العالى ، فقدمت مذكرتها المشتركة فى ٢٧ يوليو ١٨٣٩ متضمنة ألا يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه • وبذلك نجحت السياسة الإمبريالية وفرضت تدخلها وامتلكت زمام العلاقة بين استنبول والقاهرة •

ووقع خلاف بين بريطانيا وفرنسا حول رغبة الأخيرة فى منح

محمد على حق الوراثة فى حكم مصر والشام واستبعاد شبه الجزيرة وأطنه وكريت ، ورفضت الأولى ذلك وأيدتها روسيا فى الاكتفاء بحكم مصر راثية ، ثم اتسع النطاق بعض الشىء بالموافقة على اعطائه ولاية عكا مدة حياته • وبناء على هذه القاعدة أبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين الدول الأربع — بعد اقصاء فرنسا لموقفها المعارض — وبين الدولة العثمانية ، وتعهدت الدول بمساعدة السلطان فى اخضاع محمد على ، وتضمنت المعاهدة الشروط الواجب على والى مصر اتباعها •

ولما لم يستسلم حاكم مصر تصدت له بريطانيا ، فأنزلت أسطولها على سواحل الشام ، وأدارت الدسائس على أرضها بواسطة عملائها ، وانضم الحلفاء لها ، وتوالى سقوط الموانى ، وقطعت المواصلات مع مصر ، ودخل قائد الأسطول البريطانى فى مفاوضات مع محمد على الذى رضخ للأمر الواقع وقبله بعد أن فقد ولاية عكا لتأخره عن الموعد المحدد للاجابة ، وصدر فرمان فبراير ١٨٤١ باعطاء ولاية مصر لمحمد على مع حق الوراثة ، لكنه اعتراه بعض القيود ، مما دفع الدول للتدخل — باشتراك فرنسا — للتخفيف منها حتى صدر فرمان يونيو ١٨٤١ وضم القواعد المتفق عليها •

وهكذا نجحت بريطانيا فى تحجيم قوة محمد على ، حقيقة أن الأمر لم يصف لها لأن تسوية ١٨٤١/٤٠ صبغت مصر بالوصاية الدولية ووضعتها تحت الاشراف الأوربى ، ولكن كما اتضح أنها كانت القوة الكامنة وراء هذه الأحداث والمؤثر الفعال فيها ، وقد عدتها بمثابة ورقة رابحة فازت بالحصول عليها لتلعب بها وقت أن تلوح لها الفرص لتزيد من تدخلها وتوغل نفوذها • ولكن الى أى حد نجحت فى ذلك ؟ والاجابة تفرض نفسها على الصفحات القادمة •

● **الرصـــد :**

نجحت السياسة التى انتهجتها بريطانيا حيال طعن محمد عـــلى ، اذ أفقدته المكاسب التى حصل عليها وضحى بالكثير من أجلها ، ولم تكتف لنـــدن بما تحقق ، وانما كان عليها مواصلة تلك السياسة تجاه مصر وفقا للخط الذى رسمته مستغلة جميع الظروف التى تمكنها النفاذ من أيـــة ثغرة ، وكانت على يقين تام من مقدرتها على النجاح • واتجهت الأنظار البريطانية سواء فى مصر أو فى مقر الدولة العثمانية الى مراقبة الأمور وتصويرها للخارجية البريطانية تباعا ، حتى تصبح ملمة بكل صغيرة وكبيرة ، وعليه يكون التصرف وفقا للقواعد المطلوبة •

وركزت بريطانيا على ابراهيم واهتمت به ، فهو يمثـــل قوة من الضرورة أن يعمل لها حساب ، حقيقة أن الستار قد أسدل على المسرح الحربى بانتصار القوى المعادية لمصر وهزيمة البطل وانسحابه مع جيشه الى الحدود المصرية ، ولكن كان لابد من العمل على كسر شوكته حتى لا تقوم له قائمة تعيد الكرة مرة أخرى ، فى الوقت الذى رأت فيـــه بذل الجهود للاطاحة التامة بالنظام الاقتصادى والاستحواذ على أى شكل من أشكال الامتيازات ، وخاصة أنها على علم بالقدر الذى يتمتع به ابراهيم من السلطة وبكلمته المسموعة لدى أبيه فى كثير من الأحيان ، بالاضافة الى ما أثبتته التجارب من نجاحه فى المراكز الداخلية الادارية التى تولاها داخل مصر •

والواقع أن الظروف الأخيرة التى عاشها ابراهيم فى الشام قد تركت الآثار السيئة على نفسيته ، فعقب الانسحاب والعودة الى مصر فى فبراير ١٨٤١ احتلت أرضه الزراعية الخاصة المرتبة الأولى لديه ، وهذا ما لمسه بارنت Barnett القنصل البريطانى العام ، فأرسل الى أبردين Aberdeen وزير الخارجية البريطانية ليترجم الارتياح الذى انتابه لاتجاه ابراهيم فى التفرغ للزراعة ، وأن أرضه تعد أجود

أرض زراعية ، وأنه ينفق المبالغ الضخمة ليزيد من تحسينها لتكون فى خدمة الصالح العام ، ثم يبين أن فلاحيه أقل تعرضا للظلم عن اخوانهم فى الجفالك الأخرى خاصة التى يمتلكها أبوه حيث يقوم بدفع مرتبات خدمه بانتظام ، وأنه أنشأ مصنعا لتكرير السكر ويوالى امداده بالقصب من مزارعه فى الوجه القبلى ، كما أقام مضخات مائية بواسطة آلات هيدروليكية على ضفاف النيل[1] .

ويرصد بارنت تحركات ابراهيم ، ويربط بينها وبين تنقلات أبيه ، فيبعث الى أبردين بنتائج رصده لتلك الخطوات[2] . ونراه يحرص على اللقاء به ، ويسجل انطباعاته عن المقابلات ، ويذكر أنه تحدث معه كثيرا ووجده رجلا على درجة كبيرة من الذكاء وأحكامه سليمة وصراحته واضحة تماما ، وأن تلك الصفات قضت على ما سبق أن التصق به من عنف وقسوة ، وبالتالى تحولت طباعه وأخلاقه الى الأحسن ، ولكن العيب الذى يشوبه شغفه بالمال ، ويعلق « ولكن للحقيقة والعدالة فانه ينفقه بسخاء » ويستعرض المشروعات التى تستنفد المبالغ المالية[3] .

وتتابعت علامات الرضا عن ابراهيم ، فينتاب القنصل البريطانى العام القلق بشأن المرض الذى هاجمه ، ويكتب للندن ليبلغ وزير الخارجية البريطانية بأن خراجا كبيرا تكون بالبريتون استدعى اجراء عملية جراحية عاجلة له ، وأن تقرير الأطباء يشير الى خطورة الحالة ، وهناك خوف على ألا تستمر حياته طويلا ، ويختتم مكاتبته « ولا يمكننى

---

(1) F. O. 78/451, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 18, 1841, No 23, F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.

(2) F. O. 78/541, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 14, 1843, No 1.

(3) F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.

الا أن أقول ان وفاة ابراهيم باشا وريث محمد على فى عرشه ستكون كارثة كبيرة لهذا البلد »[٤] • معنى هذا أن الأمل يراود المسئولين البريطانيين فى أن يحقق ابراهيم المصلحة لبلدهم • وبتدهور صحة محمد على يزداد القلق ، فيذكر بارنت أن الباشا استقبل العديد من الشخصيات من بينهم سعيد وعباس ، وأصدر أوامره الى ابراهيم لاعادة اصلاح القاهرة ، ثم يتحدث عن ذلك المجلس الذى رئى تشكيله لمعاقبة الخائنين[٥] •

ويعود القنصل البريطانى العام ليركز على ابراهيم مؤكدا أنه منذ انسحابه من الشام لا تلح عليه الرغبة فى أى عمل حربى ، وانما وجه عنايته للثروة الزراعية ، وأظهر فى ذلك كفاءة بالغة ، ورغم شدته فانه معروف بعدالته ، وأخيرا يسجل « وانى آمل أنه حينما يدعى لحكم هذا البلد ، فسيكون أكثر صلاحية لرفع الغبن عن الشعب وتحسين حالته من أبيه ، وأنه يكره الانجليز لأنهم طعنوه أكثر من مرة كقائد حربى ، ومع ذلك فهو مفعم بأهمية العلاقة بين بريطانيا ومصر ، وبأن باب وصالنا بالهند يجب بقاؤه مفتوحا عبر مصر بازالة العقبات من طريق مواصلاتنا مع الشرق ، وانى سمعت من جميع الجهات عن السلوك العظيم له فى الفترة الأخيرة حينما كلفه أبوه بالعمل حيث أثبت المقدرة التى يستحق الثناء عليها »[٦] • اذن أصبح الاتجاه شبه واضح بالنسبة لولى العهد •

ومع هذا فان الادلاء برأى قاطع شابه بعض الحذر ، تبين ذلك عندما بعث كيانى Ciani الوكيل البريطانى فى العطف — نقع على فرع رشيد — الى بارنت لينقل له أن بدويا ملثما مسلحا طرق بابه فى الثالثة صباحا من يوم ٢١ سبتمبر ١٨٤٤ ثم كشف عن وجهه وألقى

(4) Ibid.

(5) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 6, 1844, No 14.

(6) Ibid.

بسلاحه وطلب منه الانصات اليه واعطاءه المساعدة بصفته ممثـــلا لبريطانيا ، وحدثه عن الخلافات بين محمد على وأسرته ، وأن الحـــزن يسود القبائل ـ فى البحيرة ـ التى يقاسى أفرادها الأمرين وستزداد حالتهم سوءا عندما يتولى ابراهيم الحكم عقب وفاة أبيه حيث سيوقعهم تحت نظامه الصارم ، وأنه جاء مندوبا من قبل هؤلاء ليتعرف على موقف بريطانيا فى هذه الظروف ، وأنهم على استعداد لتجهيز من عشرة آلاف الى اثنى عشرة ألف فارس بخيولهم لمقاومة تخطيط ابراهيم ، فأجابه الوكيل البريطانى بأنه ســـيرفع الأمر للقنصل البريطانى العام للافادة بالرأى(٧) .

وقام بارنت بالرد مصرحا بأن بريطانيا لها علاقات طيبة بالبدو ، لكنها فى نفس الوقت لا تتدخل فى الشئون الداخلية لمصر ، وكتب الى لندن مستعرضا الحدث موضحا استعداد البدو للقيام بثورة عارمة مع أنهم أحسن حالا من الفلاحين وسكان المدن ، اذ يتمتعون بحرية أكثر ويعدون أقل تعرضا للظلم منهما ، ويحدد موقفه « وانى أجهل طبيعـــة قيامهم بالشكوى جهرا ولا أشجعهم على القيام بالثورة » ويتابع القول « ومن الصعب تكوين فكرة عن الخط الذى سيتبعه ابراهيم باشا عندما يتولى حكم مصر ، وسألت هذا السؤال لسليمان باشا الذى ربما يكون على دراية بسلوكه أكثر من أى شخص آخر ، فكانت اجابته : قد يكون أحسن بكثير ، وقد يكون أسوأ بكثير»(٨) . ومن ثم يبدو أن هنـــاك بعضا من الغموض يكتنف شخصية ابراهيم .

ومع القلاقل التى حدثت نتيجة تسحب الفلاحين واحضـــارهم بالقوة ، والاحتكاك الذى حدث بين المسلمين والمسيحيين فى دميـــاط ، زاد السخط البريطانى على محمد على ، وانتقد بارنت فقدان الأمن وكتب

---

(7) Ibid, Ciani — Barnett, Atefe, Sept. 26, 1844.

(8) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 6, 1844.

الى حكومته « اعتقد أنه لا يوجد شخص فى مصر من ابراهيم باشا الى أفقر فلاح الا ويصلى من أجل موت محمد على ، لأن تلك النهاية هى المخرج الوحيد لانقاذ الدولة من العبودية »[٩] • وفى ذلك ما يتبين أن ابراهيم يتوق للامساك بزمام الحكم ، وأنه مرتبط بالأمن والاستقرار • ويخشى القنصل البريطانى العام من عدم تحقق الأمنية نظرا لمعاودة المرض للحاكم المنتظر ، فيذكر للندن أن صحته تتدهور ، ومن غير المحتمل امتداد العمر به طويلا حتى ولو تولى دفة الحكم ، وأنه — أى بارنت — التقى مع كلوت الطبيب المعالج ، فأعطاه فكرة عن مرضه الذى قد ينتهى بناسور فى المثانة[١٠] •

ومحاولة لمزيد من التقرب لابراهيم ، وعندما قرر السفر لأوروبا لاجراء استشارات طبية بعد حصوله على الاذن من أبيه ، يكتب بارنت الى أبردين يعلمه بأن ابراهيم سيغادر الاسكندرية ، وينوى قضاء مدة الحجر الصحى بمالطة ، وعليه فقد حرر الى ستيورات Stewart حاكمها ليتخذ الاجراءات المناسبة لاستقباله مع مرافقه سليمان باشا[١١] • وكانت مسألة استقطابه تهم الخارجية البريطانية ، فبعثت لقنصلها العام فى القاهرة مؤيدة اتصاله بحاكم مالطة ، مؤكدة ضرورة الاهتمام به أثناء وجوده فيها ، مرحبة بزيارته لانجلترا اذا كانت حالته الصحية تمكنه من ذلك « فان حكومة جلالتها ستكون فى كامل سعادتها للعناية به وستعمل ما فى وسعها لراحته ليس فقط لما له من صفات حميدة ، ولكن لاثبات حسن العلاقات التى تربطها بمحمد على نفسه »[١٢] •

---

(9) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(10) Ibid.

(11) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 7, 1845, No 30.

(12) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., Sept. 23, 1845, No 15.

وأتت المجهـودات أكلها ، ووجـد ابراهيم الترحاب ، ويصف ستودارت Stoddart القنصل البريطانى بالاسكندرية لبالمرستون Palmerston وزير الخارجية البريطانية وقائع وصول ابراهيم الى الاسكندرية حيث كانت تقله احدى البواخر البريطانية ، ويسجل لقاءه به ، ويبين أنه أصبح بصحة جيدة ويتمتع بروح عالية ، وقد وضح عليه أثر الاستقبال الفائق الذى قوبل به[١٣] • ويعود القنصل مرة أخـرى ليشير الى أنه رغم الفترة القصيرة التى قضاها ابراهيم فى الاسكندرية، ولكنه يمكنه الحكم عليه — من خلال مقابلاته له وحديثه معه حيـث دار حول اهتمامه بالتطور الذى تعيشه أوربا فى كافة المجـالات مع التركيز على الزراعة — بأنه ذو عقل متفتح[١٤] •

ويستلم مـرى Murray القنصل البريطانى العام رسالتين من بالمرستون ليقوم بتوصيلها الى ولى العهـد ، وينفـذ المطلوب[١٥] • ولا يعرف محتوياتهما ، وربما اشتملتا على بعض المجاملات وفقـا للسياسة البريطانية فى هذه المرحلة والتى دخلت تحتها شخصية محمد على اذ أبدت لندن ترحيبها بزيارته لها مستعرضة ما يمكن أن يقام له من استقبال عظيم[١٦] • وردا على تلك المجاملات فقد رحبت الحكومة المصرية بالضباط الانجليز من أصحاب المراكز وذوى الرتب الكبيرة أثناء مرورهم بمصر ، وأعرب ابراهيم للقنصل البريطانى العام عن امتنانه للقيام بهذا العمل ، ويبلغ مرى وزير الخارجية البريطانية أن ذلك جاء

---

(13) F. O. 78/661 B, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 8, 1846, No 4.

(14) Ibid, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 23, 1846, No 5.

(15) F.O. 78/662, F. O. — Murray, F. O., Sept. 24, Oct. 21, 1846, Murray — Palmerston, Alex., Oct. 22, 1846, No 1.

(16) F. O. 78/708, Palmerston — Murray, F. O., Nov. 17, 1847.

بناء على ما قدمه ممثلا حكومة جلالتها فى نابولى ومالطة له ولأبيه[١٧] .

وتسيطر الحالة المتدهورة لصحة محمد على على مراسلات المسئولين البريطانيين فى مصر ، خاصة بعد عودته من الخارج فى ١٢ فبراير ١٨٤٨ [١٨] . ريصرح مرى بسوء حالته سواء العقلية أو الجسمانية ، وأن الاحتمال أصبح ضئيلا لامكانية استعادته لذهنه الحاد والنشط بعد فقدانه الادراك تماما ، وأنه يعيش منعزلا ، ويرفض الأطباء اعطاء أى شهادة رسمية تثبت عدم مقدرته على مباشرة مهام الحكومة ، وأن ابراهيم منذ عودته من رحلة نابولى [١٩] ، والأمر يزداد حيرة خاصة فيما يتعلق بالمحافظة على النظام العام والهدوء ، وأنه يأبى أخذ المسئولية على عاتقه خوفا من مزاولة أبيه للعمل بعودة مؤقتة قد تكون عودة غضب بدافع الغيرة التى يعتبر أنها كانت دائما وراء التدخل فى سلطته لأتفه الأسباب . ويصف مرى سوء الحالة التى تجتازها مصر وتأثرها تجاريا من ناحية ، وبالهزة السياسية فى أوربا من ناحية أخرى ، ويبين أن مثل تلك الظروف تحتاج الى نشاط وثبات من حكامها بعكس الواقع الذى يثبت أنها بدون حكومة [٢٠] .

واتصل قنصل بريطانيا العام بباقى قناصل الدول للوقوف على الحال من المسئولين المصريين بعد أن أصبحت الضرورة ملحة فى اتخاذ بعض الاجراءات لضمان المحافظة على الأمن العام بعد تلك الاشاعات

---

(17) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, April 15, 1848, No 14.

(18) F. O. 78/765, Jegrier Chasseaud (Vice Consul) — Iecutis (Malta), Alex., Feb. 14, 1848.

(١٩) مما يذكر أن عودته كانت على باخرة بريطانية ، وطلبت الخارجية البريطانية محاسبة الحكومة المصرية على التكاليف .
F. O. 78/766, F. O., June 14, 1848.

(20) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Alex., April 9, 1848.

التى دارت حول وفاة « الباشا العجوز » • ويتنقل مرى مخاوفه مما قد يحدث لوزير الخارجية البريطانية ويخبره بأن مجلسا عقد من جميع الباشوات ومديرى الدواوين فى ٨ أبريل ١٨٤٨ واستدعى اليه الأطباء حيث تمت مناقشة الحالة المتدهورة للقوى العقلية للوالى ، وكيف أنها تمثل حائلا أمام تصرفه كحاكم ، وأن المجتمعين قرروا أنه أصبح غير لائق لمباشرة شئون البلاد ، وعليه تشكل مجلس من الباشوات البارزين ومديرى الدواوين وتقرر تولى ابراهيم ادارة دفة الحكم باسم أبيه ، وأن يوقع بدلا منه على الأوراق الرسمية العامة (٢١) •

ونفذ القرار فى اليوم التالى للاجتماع ، وسعد به مرى وصرح لبالمرستون بأنه سيحول دون حدوث ما يعكر صفو السلام العام ، وفى الوقت نفسه يسر اليه بأن عناصر الفوضى — كما أشارت التقارير الدورية — تقوم بالسلب والنهب فى مناطق عديدة بالوجه القبلى ، اذ رفض البعض دفع الضرائب ، وأن الاجراءات تتخذ بشأن سحب الأسلحة فى كثير من الأحياء ، ويشير الى الحالة المضطربة فى اليونان وولايات البلقان وامكانية انعكاسها على الاسكندرية التى تضم وحدها من أربعة الى خمسة آلاف يونانى يعيشون فى قلق بالغ ، وأنه تحت هذه الظروف من المتوقع أن يلتهب الموقف ويصبح الأمر خطرا على الأوربيين (٢٢) •

وبناء على ذلك رأى مرى أن من واجبه استعراض الأوضاع لربان البارجة البريطانية أودين Odin ، وأن يطلب منه — فى حالة استطاعته وعدم مخالفته للتعليمات — البقاء بالاسكندرية لحين زوال العاصفة وحتى يتلقى تعليمات أخرى من القائد العام فى مالطة ، ويبين القنصل البريطانى العام أنه سيكتب الى حاكمها يشرح له تفاصيل الحالة ويوصيه بارسال بارجة أخرى — ان لم يسبب هذا ازعاجا له — لحماية

---

(21) Ibid.

(22) Ibid.

المصالح البريطانية • ولما كان مرى شغوفا لتوصيل تلك الأخبار وانقضت ثلاثة أيام ولم تمر باخرة بريطانية ، بعث بها مع باخرة فرنسية [٢٣] • وعليه تنجلى المخاوف التى انتابت الممثل البريطانى ورد فعلها •

ومما لا شك فيه أنه كان لتولى ابراهيم الحكم — بطريقة غير رسمية — أثره على الرؤية البريطانية ، وعقب شهر من ممارسته للسلطة يكتب مرى لوزير الخارجية البريطانية مشيرا الى قوة شخصيته ، ومهارته فى التقاط جميع الخيوط، وانطواء أعضاء المجلس المعاون له تحت التبعية الكاملة لارادته ، وانه — أى مرى — التقى به وطرح عليه عدة موضوعات للمناقشة حتى يجس نبضه ويسبر غوره تجاهها ، فخرج بنتيجة أكد فيها أنه رجل عملى وصاحب أفكار مستنيرة عن أبيه[٢٤] • ويرجع القنصل البريطانى العام تلك التغييرات التى قام بها الحاكم فى الادارة الداخلية سواء فى القاهرة أو الأقاليم الى باعث شخصى قصد من ورائه تقوية مركزه بشغل هذه المناصب بأصحاب النفوذ من الضباط الذين يثق فيهم ويدينون له بالولاء[٢٥] • وهكذا ظهر ابراهيم فى صورة طيبة أمام الأعين البريطانية ، ولكنها لم تستمر طويلا اذ سرعان ما تغير الانطباع عنه لمعاكسته للمصالح البريطانية •

• مراقبة القوة العسكرية :

مثلت مسألة التحركات المصرية فى المجال الحربى ضجرا لبريطانيا ، فيعكس بارنت اضطرابه بشأن التحصينات التى تجرى بالاسكندرية فى عام ١٨٤٥ ، وينقل لوزير الخارجية البريطانية تفصيل ذلك النشاط

---

(23) Ibid.

(24) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(25) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.

الذى يقوم به ما بين ستة وسبعة آلاف عامل يوميا على طول الساحل الشرقى فى الجزء القديم من المدينة حيث يجرى بناء استحكامات للثكنات العسكرية والعديد من الحصون فى المراكز الرئيسية ، ويصل لبيت القصيد مشيرا الى أن هذه التحصينات جاءت ترجمة لنصيحة الحكومة الفرنسية التى بعثت بالمشروعات من باريس ، كما آنه يشرف عليها جاليس Gallice وهو مهندس فرنسى يعمل فى خدمة الحكومة المصرية[٢٦] • ويعود ويذكر أن النية متجهة أيضا الى تحصين السويس[٢٧] •

وراح مرى يسجل لحكومته التنظيمات الخاصة بالقوات وتوزيعها[٢٨] ، وكم ضايقه ارتفاع العدد الى ٥٠ ألف مقاتل دون الرجوع للباب العالى ، وعد ذلك تعارضا مع فرمان ١٨٤١ — حدد عدد القوات بـ ١٨ ألف — وكتب الى السفير البريطانى فى استنبول ، كما أبلغ وزير الخارجية فى لندن[٢٩] • ومعروف أن تنظيمات الحربية مرتبطة بابراهيم ، وبعد أن كان القنصل البريطانى العام يتصور أن اهتماماته ركزت على أرضه الزراعية ، انقشع هذا تدريجيا ، وعاد الجيش واحتل مكانا عليا لديه خاصة بعد تسلمه مسئولية الحكم فى ابريل ١٨٤٨ ويقينه من ضرورة استناده على الجيش فى تثبيت حقه فى الوراثة ومواجهة أعدائه •

ويعبر القنصل البريطانى العام عن أسفه لبالمرستون لما يبذله

---

(26) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., June 3, 1845, No 21.

(27) F. O. 78 / 707, Murray — Palmerston, Cairo, April 20, 1847, No 22.

(28) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Jan. 1 st, 1847.

(29) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., May 23, 1847, No 30, Alex. June 18. 1847.

الحاكم فى اعادة بناء الجيش بعد أن كان فى حالة يرثى لها ، وأنه — أى ابراهيم — أجل ما يتطلبه الانتاج الصناعى لصالح الناحية الحربية ، وأصدر أوامره لبناء الحصون المدفعية بالاسكندرية ، وأن تحصينات دمياط ورشيد تحت الاصلاح والتوسع ، وأنه سحب القوات من القناطر لتنضم لفرقها بالمعسكرات بعد احلال أنفار الزراعة المجندين الزاميا مكانهم ، ويعلق مرى على ذلك الاجراء ويصفه بعدم التبصر ، لأن معنى سحب هؤلاء العمال يؤثر على الأرض الزراعية مما ينتج عنه عجز فى الأيدى العاملة فى وقت تعد فيه خزانة الدولة خاوية(٣٠) .

وينتقل مرى ليشرح للندن احدى الطرق التى يتم بها اعادة تنظيم وبناء الجيش ، وهى التجنيد الالزامى ، فيذكر أنه لم يأت أول يونيو ١٨٤٨ الا وكان يجرى على قدم وساق ، وقد استعملت فيه الوسائل الوحشية ، فيقوم مديرو المديريات بتقديم الكشوف الخاصة بعدد السكان ، ثم تصدر اليهم تعليمات الحكومة باستدعاء نسبة معينة منهم ، وتنقل الى مشايخ القرى لاجراء اللازم ، وعادة يكونون أشد قسوة وضراوة فى طغيانهم ، ويجمعون عشرة أمثال العدد المطلوب ، ومعظمهم أرباب أسر يقادون بسرعة فائقة بعد أن يستحوذ الرعب على قلوبهم ويصبحوا على استعداد لشراء الاعفاء بأى ثمن حتى لو أدى ذلك الى فقدهم لكل قرش يمتلكونه ، ومن ثم يستغل المشايخ الظروف ويمتصون دم من يقع تحت أيديهم ويخلون سبيله ، ويقدمون العدد المطلوب من الذين عجزوا عن الدفع ، ويقيدون مثنى مثنى كالمجرمين ويسحبون جمعا كقطعان الغنم مصحوبين بحراسة حتى يصلوا الى العاصمة أو المعسكر(٣١) .

---

(30) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(31) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.

ويواصل القنصل البريطانى العام قوله ، فيذكر أنه بمجرد انتشار اشاعة بأن التجنيد على وشك الحدوث ، يقوم العاملون بالزراعة بمغادرة منازلهم الى كل اتجاه ، فالبعض يختفى فى الأرض القاحلة أو بين الأشجار الكثيفة ، والغالبية العظمى يتخذون الصحراء ملجأ ، وتتلف آلاف بل ربما ملايين الأفدنة من أجود المحاصيل بفقدان الأيدى العاملة التى تحصدها وتحملها • ويستكمل مرى الصورة بمجموعات الجنود التى ترسل الى جميع الاتجاهات لتقبض على العمال الهاربين وتقيدهم ، ثم يبين « أنه لا يمكن افهام هؤلاء الأتراك المستنيرين أنه علاوة على البؤس والدمار اللذين يتمكنان من الفلاحين ، فان صرف منحة مالية للمجندين بما يضمن امداد كاف من المتطوعين ، لن تصل الى ربع الانفاق والخسارة التى ابتليت بها موارد البلاد بطريقة غير مباشرة » • ويستفسر بعد ذلك عن امكانية الاعتماد على جيش نصف منظم كون على هذا النحو ، ويعطى الاجابة بأن أفراده ينتظرون أول فرصة مناسبة للهروب والعودة الى منازلهم(٣٢) •

ويسوق القنصل البريطانى العام لبالمرستون مثالا ، فيسجل أن التجنيد الاجبارى أصاب ابن زوجة أحد الشيوخ ، وعندما علم الشاب أن اسمه فى القائمة السوداء هرب ، ولما لم يعثر عليه الجنود تم القبض على الشيخ ، ووضع بناء على أوامر الضابط فى السجن حيث قضى عدة أيام ثم استدعى للتحقيق تحت حراسة الجنود وسئل عن الشاب الهارب ، وهدد بضرورة احضاره ، فأبدى استعداده فى الاحلال مكانه أو تقديم جميع ما يمتلكه لأنه لا يستطيع العثور عليه ، وسيطر على الضابط الاعتقاد بأن الشيخ يعرف مخبأ الهارب ، فأمر بطرحه أرضا وضربه ليحصل منه على الاعتراف ، واستمر الضرب حتى فارق الشيخ الحياة • ويعلق مرى على ذلك الحدث مصورا كيف تطبق العدالة وتصدر

---

(32) Ibid.

الأحكام ، مبينا أن هذه الواقعة كان يحضرها من يسمى خطأ وزير العدل (رئيس جمعية الحقانية) ، وأخيرا يشير الى أن مثل تلك الطـــرق السيئة والمحزنة يخرج منها بانطباع غير طيب عن ابراهيم ونوعة ادارته وسوء تخطيطه[٣٣] .

ويتحدث مرى عن استعدادات الحاكم للدفاع عن السواحل فى الوجه البحرى ، فيصرح أنها تتقدم بسرعة ، والعمل فيها مستمر بنشاط ، وأنه يجرى التحصينات وتنصيب المدافع فى رشيد والبرلس ودمياط ، أيضا أنشأ معسكرا يضم ما بين ثمانية وتسعة آلاف رجل — على بعـــد أميال من القاهرة — يتدرب أفراده على المدفعية التى ازدادت قوتها[٣٤] . ويذهب القنصل البريطانى العام الى هذا المعسكر ليتفقده على الطبيعة ، ويبعث بتقرير عنه للندن ، فيذكر أن المدفعية على درجة عالية من الكفاءة ، ويتناول فرقها ، ويركز على مدفعية السواحل ، وأن كل آلاى يتكون من أربع بطاريات ، وتضم البطارية ٨٠٠ رجل وثمانين مدفع ميدان معظمها صناعة فرنسية وبعضها بحالة جيدة ومعدلة ، وملحق بكل آلاى حوالى

---

(33) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 5, 1848, No 28.

أثار حضور رئيس جمعية الحقانية حفيظة مرى بشأن ممارسة القضاء على البريطانيين بواسطة السلطات المحلية ، فيعرض لاحدى القضـــايا اتهم فيها ستة من البحارة الانجليـــز وينتظرهم حـــكم الاعدام وفقـــا للشريعة الاسلامية ، وأن القنصلية البريطانية لن تتمكن من التدخل رغم أن القانون الانجليزى يعدهم أبرياء ، ويبين أن الاحتجاجات والشكاوى لرفض الأحكام لم تأت بالنتيجة ، ويكتب للسفير البريطانى فى استنبول للوقوف على نظـــام القضاء المختلط لمحاكمة المجرمين مستعرضا الخطورة التى يتعرض لها رعايا دولته وفقدانهم الحصول على العدالة .

F. O. 78/708, Murray — Palmerston, Alex., July 18, 1847, No 46, Cairo, Dec. 17, 1847, No 67.

(34) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, June 1st, 1848, No 20.

الألف من الخيول والبغال لتولى مهمة هذه المدفعية ، ثم يتعرض لبـاقى المعسكرات واستقبالها الجنود الجدد لاستيفاء الأعداد المطلوبة[٣٥] .

وفى أول يوليو ١٨٤٨ يسجل مـرى أن التجنيد الالـزامى قد استكمل ، والنتيجة أن عدد قوات الجيش وصلت الى ٥٢ ألف جندى ، تضم ٤٠ ألف مشاة ، ٦ آلاف سوارى ، ٦ آلاف مدفعية ، بخلاف القوات غير النظامية الموزعة فى المديريات والتى تبلغ ٥ آلاف ، وأيضا هناك المدارس الحربية والمهندسين ، بالاضافة الى القوات البحرية وتصل الى ١١٫٥٠٠ رجل نصفهم يعمل فى الترسانة والقناطر الخيرية ، ويشـير القنصل البريطانى العام الى تحركات ابراهيم وانشغاله بالتفتيش على تحصينات السواحل فى الاسكندرية ورشيد ودمياط وغيرها ، وتركيزه على اصلاحها وزيادتها ، ويصف كيف ثبتت المدافع فى الموانى ، وأعدت قوة من السفن الحربية استكمالا لاستعدادات الدفاع الساحلى ، ثم يذكر أنه حتى تلك اللحظة لم يقدم هو أو أحد من زملائه بتوجيـه الأسئلة الى ابراهيم بشأن الغرض من اتساع التجهيزات الحربية[٣٦] .

ويعلق مرى على هذا النشاط العسكرى ، فيبرره بأنه جاء بناء على تزايد قطع الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، وتلك الاشـاعة التى انتشرت على نطاق واسع داخل مصر بأن بريطانيا تضع مصر نصب أعينها ، ولو أنه يبين أن ابراهيم سخر منها وعدها اشاعة كاذبة ، لكنه — أى القنصل — يرى أن لها دورا فى مسألة الدفاع وأنه فى حالـة مواجهة ابراهيم وسؤاله عنها فسيدحضها[٣٧] . بمعنى أنه يظهر غير ما يبطن . أما فى لندن ، فقد بعثت الخارجية البريطانية الى سفيرها فى استنبول كتابا — أرفقت به رسالةمرى — لفتت فيه النظر الى ما تقـوم

---

(35) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.

(36) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 1 st, 1848, Nb 26.

(37) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.

به الحكومة المصرية فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية الجارية بدرجة غير عادية ، وطلبت تصوير ذلك الوضع للباب العالى[٣٨] • وعادت وأرسلت الى قنصلها العام فى مصر بتعليمات تختص بسؤال الحكومة المصرية عن تفسير زيادة القوة الحربية عن العدد المتفق عليه فى فرمان ١٨٤١[٣٩] •

وبذلك تتضح قدرة ابراهيم على التصدى بالرغم من ظروفه النفسية والمرضية ، لكن شعور الخطر الذى أحاط به حتم عليه اتخاذ هذا الموقف الذى ارتابت منه بريطانيا ، ولم تتمكن من وقفه ، وانما انحصرت مجهوداتها فى مراقبته وما استتبع هذا من بعض التحركات الخفيفة التى لم تثمر •

• الاحتكار والقرانزيت :

شغلت بريطانيا بالسياسة الاقتصادية الخاصة بالاحتكار التى طبقها محمد على ، وجاهدت من أجل الغائها لما فيها من ضرر باقتصادها من ناحية ، ولادراكها أنها الركيزة التى يعتمد عليها باشا مصر فى تقوية مركزه داخل ممتلكاته من ناحية أخرى • وأفرزت مساعيها عن عقد معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ مع السلطان بالغاء احتكار التجارة فى ولايات الدولة العثمانية ، ولكن والى مصر كان على درجة كبيرة من الذكاء اذ تباطأ تارة وتحايل تارة أخرى بحيث لم تضف السهولة أو اليسر على تطبيق المعاهدة تماما ، ومضت كلمات بارنت تضج بالشكوى من استمرار الاحتكار فى جميع العمليات[٤٠] •

---

(38) F. O. 78/731, F. O. — Canning, F. O., July 14, 1848, No 71.

(39) F. O. 78/756, F. O. — Murray, F. O., July 31, 1848.

(40) F. O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1st, 1841.

وطبقت سياسة الاحتكار على منتجات سنار خاصة الصمغ والعاج رغم ما أعلنته الحكومة المصرية فى مارس ١٨٤٢ بشأن حرية هذه التجارة ، ويثور القنصل البريطانى العام ويكتب لحكومته ليدحض ادعاء الاحتكار ويبين أن الهدف منه تقوية الحاكم وتحقيق مصلحته الشخصية[٤١] . ويلتقى بأرتين مدير ديوان التجارة والأمور الأفرنجية ويتحدث معه بشأن المصالح التجارية البريطانية ، ويتعرض للرسوم المفروض تحصيلها على بضائع الترانزيت ، وأنه وفقا للمعاهدات التجارية مع الباب العالى ، فان تلك البضائع لا تستحق عليها الا رسوم ٣٪ بينما تنخفض الى ١/٢٪ فى حالة قيام شركة الترانزيت بنقلها[٤٢] .

واعتقد مرى أن التعامل مع ابراهيم فى هذا الشأن بعد قبضته على زمام الأمور سيكون فى الصالح البريطانى ، ففى البداية يصف لبالمرستون عقليته الواعية خاصة فى المسائل التجارية والمالية ، وأن ادارته ستكون حكيمة[٤٣] . ولم يلبث الأمر أن عاود ونقل سوء الحالة التجارية الداخلية والخارجية فى يونيو ١٨٤٨ وأن محصولى القمح القطن راكدان فى مخازن الحكومة نظرا لعدم رواج السوق وانخفاض السعر ٦٠٪ عن المعدل المقابل للشهر المماثل فى العام السابق[٤٤] .

وفى لقاء جمع القنصل البريطانى العام بابراهيم فى ٥ يونيو ١٨٤٨ استشف منه الأول مدى تمسك الأخير وحرصه على اتباع منهج

---

(41) F. O. 78/708, Barnett — F. O., Cairo, Feb. 21, 1844, No 6, Murray — Palmerston, Alex., Aug. 10, 1847, No 49.

(42) Ibid, Murray — Cowley, Alex., July 15, 1847, No 14.

كانت ميول أرتين لفرنسا واضحة نظرا لتلقى تعليمه فيها وتأثره بها ، وقد سبب ذلك قلقا للقنصل البريطانى العام .

(43) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(44) Ibid, Murray — Palerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.

أبيه ، اذ أخبره أنه استلم مؤخرا تقريرا من ضابط روسى خاص بالتنقيب عن الثروة المعدنية فى المديريات الجنوبية لسنار ، ويوضح أن الرمال التى وجدت حديثا فى أحد روافد النيل احتوت على نسبة من الذهب ضعف المعدل الذى تنتجه سيبريا ، ويعكس خطاب مرى للندن الفرحة والأمل اللذين انتابا حاكم مصر بهذا الاكتشاف ، ثم يذكر « ولكننى بكل صراحة قلت لسموه أن لديه مناجم ذهب أفضل بكثير مما يتحدث عنه وتقع قريبة منه وتتمثل فى القطن والسكر والحبوب من انتاج مصر ، وبامكانها افادة خزانته أكثر من رمال سنار »[٤٥] • وبذلك يترجم موقف مرى عدم الرضا عن مثل هذا الاتجاه •

ونتيجة للمساعى البريطانية لدى الباب العالى ، يبعث مصطفى رشيد الصدر الأعظم الى ابراهيم يبلغه شكاوى المسئولين البريطانيين بشأن السياسة الاحتكارية لمنتجات سنار وضرورة اقصائها، ويكتب كاننج Canning السفير البريطانى فى استنبول الى بالمرستون يعلمه باستلام خطاب من الصدر الأعظم يفيد اجباره للحكومة المصرية على قبول — دون أى تأجيل — تصدير تلك المنتجات بنفس الشروط المنصوص عليها فى معاهدة بالطة ليمان[٤٦] • ولم يتحقق المطلوب ، ولعل اجراء الباب العالى كان شكليا حيث يبين مرى للندن أنه أثناء زيارة ابراهيم لاستنبول ساوم لمساندة سرية للابقاء على احتكار منتجات سنار مقابل تقديم المساعدة لتحقيق مطامع تركيا فى الحبشة[٤٧] •

وواصلت الخارجية البريطانية محاولاتها ، وبعثت لقنصلها العام

---

(45) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.

(46) F. O. 78/735, Canning — Palmerston, Therapia, Sept. 13, 1848, No 108.

(47) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No 43.

فى مصر برسالة لاعادة الكرة مرة أخرى والضغط على ابراهيم فى هذه المسألة ، ولكن مرى أرجأ الأمر بعض الوقت اذ لم تكن الظروف مواتية نظرا لقراءة فرمان تولية ابراهيم الحكم وسوء حالة محمد على الذى عزله فى الحرملك ومنعت عنه الزيارة ما عدا أطباؤه وقلة من مستخدميه[٤٨] .

وبهدوء الحالة ، التقى مرى بأرتين وتناقش معه ، فصرح له الأخير بأن ابراهيم يرفض تنفيذ الغاء هذا الاحتكار مثله فى ذلك مثل أبيه ، وأعرب عن أمله فى انتزاع الموافقة على الالغاء دون ضغط مقابل موافقة القنصل البريطانى العام على التأجيل لفترة قصيرة ، بمعنى اعطاء فرصة نظرا لوجود احتياطى كبير من منتجات سنار فى المخازن لحساب الحكومة ولحساب الحاكم نفسه ، فأجابه مرى أنه طالما ذهبت تعليماته عبثا ، فلم تعد له سلطة ليسمح بأى تأجيل فى الغاء اجراء غير قانونى يعرض التجارة البريطانية للخطر[٤٩] . ومرة أخرى يكتب الصدر الأعظم لابراهيم مسجلا أن السفارة البريطانية ما زالت تشكو ومبينا ضرورة اسقاط الاحتكار وأنه سبق أن طلب منه انهاء هذا الموضوع مع القنصل البريطانى العام بطريقة طيبة تطبيقا للمعاهدة المعقودة بين الحكومتين العثمانية والبريطانية[٥٠] . ولكن لم تمض الا أيام وتوافى ابراهيم المنية ويتحول الميزان للصالح البريطانى .

أما عن مسألة الترانزيت فقد شكلت أهمية بالغة لبريطانيا ، اذ حرصت كل الحرص على تأمين الطريق البرى حيث تمر عبره رسائلها وبضائعها ومسافروها الى الهند وباقى مستعمراتها ، والعمل على تيسير

---

(48) Ibid. قرىء الفرمان فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٨ .

(49) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1848, No 48.

(50) Ibid .

اجراءاته ، ومصر هى ملتقى هذا الطريق الذى يربط أوربا وآسيا[٥١] . ومن ثم أصبح لابد من بذل الجهود لتحقيق الغرض ، وكتبت الخارجية البريطانية الى بارنت حول ذلك مصرحة بوضع المصالح البريطانية فى الاعتبار ، مشيرة الى ابلاغ مصر بألا تنظر الى مصالحها وتغفل مصالح الدول[٥٢] . وبطبيعة الحال لم يكن هدفها خدمة الدول ولكنها تستخدم أسلوب التورية لتدرأ عنها الشبهات .

وطلبت لندن من بارنت اجراء المفاوضات مع حاكم مصر بخصوص بريد الهند ، وضرورة قيامه بعمل ايجابى تجاه تسهيل وسرعة نقله[٥٣] . وبالفعل قام باتصالاته ، وكتب لوزير الخارجيـــة البريطانية يبين أن حديثه مع محمد على فى حضور ابراهيم لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وأنه سيعاود فتح الموضوع مرة أخرى[٥٤] . ولم يحدث تقدم اذ التصـــق التأخير بالبريد ، وتفقد الخارجية البريطانية أعصابها وتبعث الى ممثلها فى مصر تخبره بأنه — أى البريد — لم يصل بعد ، أيضا ترفض اقتراح محمد على الخاص بوجود مؤسسة حكومية تتولى الاشراف على المحطات مما يسفر عنه التحكم فى المسافرين العابرين الذين تطأ أقدامهم أرض مصر ، وتعده اقتراحا غبيا[٥٥] .

---

(٥١) منذ عام ١٨٣٠ كانت السفن البخارية البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية تواصل رحلاتها من الهند الى السويس ، وفى نفس الوقت فهناك رحلات من انجلترا — عن طريق جبل طارق ومالطة — للاسكندرية ، وبالتالى أصبح الطريق من السويس الى الاسكندرية له الأهمية القصوى ، وقد ظهر المشروع الانجليزى للسكة الحديد فى الأفق ، كما بـــزغ المشروع الفرنسى للقناة ، ولكن لم تتخذ بشأنهما خطوات ايجابية لاعتبارات معينة .

(52) F. O. 78/582, F. O.— Barnett, F. O. Aug. 13, 1844, No 7.

(53) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., July 31, 1844.

(54) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 21, 1844.

(55) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., Feb. 7, 1845, No 4.

والواقع أنه كان هناك عدد كبير من الرعايا البريطانيين يقضون فى مصر بعض الوقت حتى تقلهم البواخر اما الى الطريق للهند وما وراءها أو لأوربا ، ومما يذكر أن هذا الأمر خلق رغبة بريطانية فى المحافظة على الاستقرار والنظام فى مصرلما فى ذلك من انعكاس على هؤلاء الرعايا[٥٦] • وكان قد سبق أن صرح محمد على فى عام ١٨٣٨ ببناء استراحات فى الصحراء بين القاهرة والسويس لخدمة الترانزيت، أى لراحة المسافرين هادفا الى تحسين الطريق البرى ، واضعا نصب عينيه امكانية التحكم فيه وقتما يشاء ، وعليه حصلت « لجنة بومباى الخاصة بتمويل طاقة البخار »[٥٧] Bombay Steam Fund Committe على حق الامتياز لمدة عشر سنوات مع حق التجديد عند انتهاء المدة بمعرفة الباشا بناء على طلب من القنصل البريطانى العام • وتم تأجيرها الى ثربورن Thurburm — تاجر انجليزى وله علاقة بمحمد على وكان يستورد له البضائع من بريطانيا — وقدمت له الحكومة المصرية المساعدة ، ومن ثم تأسست شركة الترانزيت بعقد خضع لشروط معينة ، أهمها منع التأجير من الباطن ، وبتنحى المستأجر نتيجة لضغط الوالى عليه ، أجبر على نقل الخدمة بمعداتها ومخازنها للحكومة المصرية، وأصبحت فى حوزة محمد على[٥٨] ، وبالتالى غدت الاستراحات فى يده ، وتدريجيا سيطر كلية على النقل عبر الطريق البرى واحتكره • وساء القنصل البريطانى العام هذا الوضع وحذر أرتين منه موضحا

---

(56) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1854.

(٥٧) شكل المستوطنون البريطانيون فى الهند عدة لجان بشأن العمل على تقدم الخدمات الخاصة بالسفن البخارية على طول الطريق الموصل بين الهند وانجلترا ، وكانت تلك اللجنة احداها .

(58) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., March 17, 1846, No 6, F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847, No 32.

الصعوبة التى تنشأ عنه[٥٩] • وكانت الخارجية البريطانية ترفض بشدة البيع أو التنازل عن تلك الاستراحات لحاكم مصر ، وعدت هذا أمـرا خطيرا سواء من ناحية السياسية أو من وجهة النظر الدولية[٦٠] • ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح •

واستمر الاصرار المصرى على التمسك بالاشراف المبـاشر على الترانزيت ، ويسجل بارنت للندن قوله « انه بالرغم من ذلك فان الخدمة لم يشملها أى تنظيم جديد مما سبق اقتراحه »[٦١] ، ويشكو من ضرورة حصول الرعايا البريطانيين على حقهم فى وسائل النقل الى السويس ، وكان أرتين قد تسلم تعليمات من حاكمه بأن يصدر الأوامر الى البوليس المحلى بعدم تدخله مع الأهالى وترك المسافرين يأخذون طريقهم الى السويس بالوسيلة التى تروقهم ، وعاد باشا مصر وتراجع ورفض اعطاء الحرية للمسافرين ، ومن ثم يبلغ القنصل البريطانى العام حكومته بأنه سيعاود الاتصال بأرتين ويجرى المحاولات للحصول على هذه الحرية ، وذلك حتى لا يكون هناك تقيد بخدمات الترانزيت المصرية[٦٢] • أيضا كان القنصل البريطانى العام قد أثير لاحتكار المراكب فى النيل وترعة المحمودية ، وشكا الأمر لكاننج[٦٣] ، والسبب بين اذ أضر بالتجـار الانجليز الذين واجهتهم العقبات فى شحن بضائعهم الى الاسكندرية •

---

(59) F. O. 78/661 B ,Barnett — Aberdeen, Alex., Mach 17, 1846, No 6.

(60) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., April 5, 1845, No 5.

(61) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., June 5, 1845, No 22.

(62) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 19, 1846, No 1.

(63) F.O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1 st, 1841

فى عام ١٨٣٧ تم حفر ترعة المحمودية بين الاسـكندرية والعطف ، وأصبحت طريقا للاتصال بين الاسكندرية والقاهرة بدلا من الطريق البرى •

ولم تتجاوب السلطات المصرية ، واحتج الرعايا البريطانيون مطالبين بعدم الخضوع لشركة الترانزيت ، ويذكر مرى أنه وفقا لذلك خضع النقل للاحتكار ولكن بطريقة ملتوية فتقول الحكومة للمسافر « اختر وسيلة النقل التى تلائمك » وفى الوقت نفسه توقع العقاب على الذين يقومون بتأجير دوابهم من الخيول والحمير والابل ، كما ينتقدها القنصل البريطانى العام بشأن تحريمها لبيع المسكرات ، وأخيرا يبين أن الاحتجاجات القوية لم تؤد الى أى تغيير(٦٤) .

وكانت المفاوضات قد تعثرت بين ممثل بريطانيا فى مصر ومحمد على حتى لقد هددت أكثر من مرة بقطع العلاقات بين البلدين ، وينعكس تبرم مرى على كلماته الى بالمرستون ، خاصة عندما أحال الباشا الأمر على مستشاريه من الفرنسيين(٦٥) ، وكان ذلك يكدر المسئولين البريطانيين للغاية . ومضت مضايقة بريطانيا فى طريقها ، فعلى سبيل المثال أعلنت شركة الترانزيت عن مناقصة توريد أغذية ، فتقدم تاجر

---

(64) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, Feb. 18, 1874, No 10.

تحددت تعريفة الترانزيت كالآتى :

● من الاسكندرية الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ١١٧٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٩٧٥ قرشا ، والدرجة الثالثة ٥٨٥ قرشا .

● من القاهرة الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ٨٧٧ر٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٧٣١ر١٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ٤٣٨ر٣٠ قرشا .

● من الاسكندرية الى بولاق — عن طريق المحمودية — والعكس :

الدرجة الأولى ٢٩٢ر٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٢٤٣ر٣٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ١٤٦ر١٠ قرشا .

F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., June 8, 1846, No 15.

(65) F. O. 78/662, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1846, No 1.

انجليزى بعطائه ، ولكن الحكومة المصرية رفضت ارساء العطاء عليه ، كذلك اعترضت الشركة على أن يقوم بتموين السفن البريطانية ، ويشكو التاجر لقنصله الذى يتأفف من تلك المعاملة ويصورها لوزير الخارجية البريطانية ، ويرد الأخير ويطلب من مرى الاتصال بالوالى ، وبيان أن ذلك لا يتفق مع حسن العلاقة والصداقة بين بريطانيا ومصر والتى قد تتأثر اذا استمرت مثل هذه المعاملة(٦٦) .

وكان وزير الخارجية البريطانية سبق أن بعث بكتاب الى محمد على يشرح له الصعوبات التى تتعرض لها الرسائل والمسافرون داخل مصر من تعاملهم مع شركة الترانزيت ، وأن ضمان راحتهم وحريتهم يتمثل فى تعاونهم مع من يفهمونهم من الانجليز ، ويطلب بالمرستون من مرى اللقاء بحاكم مصر والتفاهم معه فى هذا الشأن ، والاشارة الى الود القائم بين الحكومة البريطانية وبينه ، كما يرفق له خطابا من مصلحة البريد البريطانية مدرجا فيه العقبات التى تواجهها الرسائل المرسلة للهند عن طريق مصر ، ثم يرى ضرورة الاتفاق على وسيلة لوصولها بانتظام وفى مواعيدها(٦٧) . ونفذ القنصل البريطانى العام المطلوب منه ، وقابل محمد على واستعجله فى رد نهائى يغنيه من عناده على احتكار الترانزيت ، ولكن الأخير أظهر الملاينة ، وفهم مرى من ترجمانه أنه — أى الباشا — لن يعاقب أصحاب الدواب اذا نقلوا

---

(66) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, March 6, 1847, No 12, F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 25, 1847, No 9.

(67) F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 8, 13, 1847, No 7, 8.

المسافرين من القاهرة للسويس[٦٨] .

وما لبث الأمر أن أثار القنصل البريطانى العلم مع حكومته مسألة استراحات الصحراء عندما قارب امتيازها على الانتهاء ، واستعلم عن النية تجاه تجديده ، وعرج على أهمية هذه الاستراحات لاتصالها باحتكار الترانزيت ولترسيخ القدم البريطانى فى الصحراء ، وأوضح أنه قد وصلت القنصلية البريطانية مكاتبات متعددة بشأن الاحتفاظ بها ، وأنها لها الضرورة القصوى لبريطانيا من الناحيتين السياسية والتجارية ، وعليه فلا يجب التسليم بسلطة حاكم مصر عليها[٦٩] . وبذلك تنطق الرغبة البريطانية فى الاستحواذ عليها ، ومما يذكر أنه بالتحكم المصرى فى الاستراحات والبواخر وجميع الآلات الخاصة بالترانزيت استبعدت مسألة دفع ٢½٪ الخاصة بالرسوم على بضائع الترانزيت ، وعممت نسبة ٣٪[٧٠] . ولم تجد مساعى مرى فى هذا الصدد .

---

(68) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, April 30, 1847, No 24.

مما يلاحظ أن عدد المسافرين ارتفع فى السنوات من ١٨٣٩ الى ١٨٤٧ كما يلى :

١٨٤٠/١٨٣٩ = ٢٧٥ مسافرا .
١٨٤١/١٨٤٠ = ٥٨٠ مسافرا .
١٨٤٢/١٨٤١ = ١١١١ مسافرا .
١٨٤٣/١٨٤٢ = ١٤٥٠ مسافرا .
١٨٤٤/١٨٤٣ = ١٩٤٠ مسافرا .
١٨٤٥/١٨٤٤ = ٢٢١٠٠ مسافر .
١٨٤٦/١٨٤٥ = ٢٢٣٠٠ مسافر .
١٨٤٧/١٨٤٦ = ٣٠٠٠ مسافر .

Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847, No 32.

هذا بالاضافة الى الجمال المحملة بالبضائع .

(69) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847.

(70) Ibid.

وانتهز القنصل البريطانى العام فرصة تملك ابراهيم زمام ادارة الحكم ، والتقى به وتحدث معه فى مسألة الترانزيت شارحا له الحالة السيئة التى يدار بها ، وأن جميع أجهزته غير صالحة للعمل ، فتلقى منه ردا بأنه ناقش الأمر مع المجلس بكل عناية ، وتقرر اجراء تغييرات وادخال تحسينات عليه ، وتنطوى على « استبعاد عدد من المستخدمين المالطيين واحلال عرب مكانهم من الذين تلقوا تعليمهم فى باريس » وينقل مرى انطباعه لبالمرستون « واذا تم ذلك فستصبح ادارة الترانزيت رديئة للغاية ، وتتكرر الشكاوى مما يدعونى استعجالك لاستصدار أمرك بانابتى رسميا لتولى هذا الموضوع »[٧١] .

ويعود ليبين بعد لقاءات أخرى له مع ابراهيم بأن الأخير يبدى اهتماما بالنقص والثغرات فى نظام الترانزيت ، وأنه طلب منه عرض ما يراه من الوسائل العلاجية مما أعطاه الاحساس أنه يعتزم القيـــام باصلاح شامل ، ولكن عادت ومثلت مسألة التخلص من الأجانب — ليس المالطيون فقط وانما دخل تحت لوائهم باقى الأوروبيين — وشغل أماكنهم بأتراك ومصريين قلقا بالغا لمرى ، وصرح لابراهيم بأنه لا يوجد أحسن من الأوروبيين مشيرا الى أن خطته ستنتهى بالفشل ، فأجابه « حسنا سوف نرى ، دعنى أجرب خطتى لبعض الوقت ، وان لم تنجح فيمكن أن نجرب خطتك »[٧٢] .

وارتاح القنصل البريطانى العام لهذه الاجابة ، واعتبرها مخلصة ومرضية للغاية اذ انحصرت رؤيته فى أنها تؤكد استخدام خطته خلال ثلاثة أشهر[٧٣] . ولكن الحاكم كان يذر رمادا فى العيون ، فلم يحاول

---

(71) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No. 17.

(72) Ibid, Murray - Palmerston. Cairo, July 28, 1848, No. 36.

(73) Ibid.

اطلاقا الحيد عن سياسته ، فيذكر مرى أنه فصل المدير المالطى رغم أنه لم يكن عديم الأمانة أو الكفاءة ، بل ويتميز بمهارة معرفة اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية والعربية ، وشغلت وظيفته بتركى ، ومع أنه مطيع وملتزم وذكى لكنه لا يمكنه النطق بجملة واحدة أوروبية ، ومن ثم فلن يفهم أى شكوى مقدمة من المسافرين ، وبخلاف ذلك فلم يسبق له التعامل مع الآلات البخارية والمركبات والخيول وعدتها(٧٤) • وبذلك يتضح أن المسألة تتعقد أمام السياسة البريطانية •

وكان مرى قد بعث بكتاب الى أرتين بشأن الاستراحات ، ولما لم يستلم الرد كتب اليه مرة أخرى لايجاد حل مرضى فى حالة التفسير بطريقة معقولة ومقبولة ، مبينا أنه تلقى من حكومته برقية بالتعجيل آملا فى ألا تؤجل الحكومة المصرية البت فى المسألة أكثر من ذلك خاصة بعد أن اتسعت تلك الاستراحات ، وأن اللجنة التى أسستها لها حق تجديد الامتياز عند نهاية مدته ، وفى حالة منحه لجهة أخرى ، فمن حق الأولى رفع دعوى واحتفاظها بالامتياز(٧٥) • ومما يلاحظ أن المسئولين المصريين آثروا السكوت ، ويشكو القنصل البريطانى العام من هذا الموقف السلبى(٧٦) • وتحرك أرتين وقام بالرد على أحد الخطابات الخاص بالرغبة البريطانية فى أن تتواجد ثلاث محطات رئيسية وتتوافر فيها المواد التموينية من أسماك ولحوم وجبن وبسكويت وفاكهة ، واكتفى بالقول بأنه عرض الأمر على سيده(٧٧) •

وحاول ابراهيم أن يتظاهر بالتعاون ، فكتب الى أرتين بخصوص التسهيلات التى طلبها مرى للترانزيت مصرحا بأنه فكر فى الأمر

---

(74) Ibid.

(75) Ibid, Murray - Artin Bey, Le Cairo, Le 12 Mai 1848, No. 22.

(76) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, May 19, 1848, No. 19.

(77) Ibid, Artin Bey - Murray, Alex., le 12 Juin 1848, No. 22.

ووجد أن المسألة تحتاج الى توزيع عدد كبير من العاملين للقيام بالخدمة، وأن يعتمد اختيارهم على الصلاح والاستقامة حتى يتمكنوا من تيسير وتغطية المتطلبات الضرورية ، متبعين فى ذلك الطرق الشريفة ، وأنه يأمل أن تكون طريقته موضع اعجاب اذ سيتمكن المسافرون من الاستمتاع بكافة وسائل الراحة أثناء رحلتهم ، كما أوضح أنه تقرر أن يتم توزيع تذاكر عليهم ، وأن الأوامر صدرت الى الادارة للعمل على تسهيل سبل الاقامة فى الاستراحات ، ويختم كلماته مبينا أنه يعمل على رضا الحكومة البريطانية بحيث تجد الأمة الانجليزية جميع الامكانيات الميسرة للمسافرين ، ويطلب من أرتين نقل هذه التصريحات للقنصل البريطانى العام[٧٨] . وفى ذلك ما يدل على سياسة التهدئة التى اتبعها حاكم مصر.

ويكتب مرى لحكومته يبلغها أن هناك بعض تغييرات تجرى بالترانزيت ولكنها ليست من الأهمية بمكان ، وأن تفسيرات ابراهيم للمطلوب مقبولة ولكنها غير محددة ، ثم يبين أنه لا يعتبر نفسه محقا فى سحب ادعاءات « لجنة بومباى الخاصة بتمويل طاقة البخار » تجاه استراحاتها ، وقبل أن يقوم بذلك سيصر على أمر حكومى واضح بأن جميع المسافرين من القاهرة الى السويس والعكس — مستخدمين الدواب من أى مكان — لهم الحق فى الحصول على تذاكر تبيح لهم دخول الاستراحات لتناول المشروبات أو للراحة ، مع سعر محدد ومناسب ، وفى حالة التنفيذ ، فانه سيرجىء سحب ادعاءات اللجنة[٧٩].

وتواصل شكاوى المسافرين البريطانيين والهنود طريقها لعدم العناية بهم عبر مرورهم[٨٠] ، ويبعث مرى لبالمرستون ليرجع أهم سبب

---

(78) Ibid, Traduction d'une lettre a S.A. Ibrahim Pacha a S.E. Artin Bey, le 27 May 1848.

(79) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, June Ist, 15, 1848, No. 20, 22.

(80) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 28, 1848, No. 36.

الى أن المنوط لهم الخدمة غير أكفاء ، ورغم اعترافه بما جرى من تحسينات كبيرة فى نظافة واعداد وسائل الراحة خاصة فى البواخر النيلية ، لكنه يسطر « يجب أن يوضع فى الاعتبار أن الترانزيت فى مصر لن تتم ادارته بطريقة مرضية للحكومة البريطانية وللشعب البريطانى حتى تعاد الادارة والجهاز التنفيذى للايدى البريطانية ، وطالما بقيت فى أيدى الأتراك والعرب، فانه لا ينتظر منها الا السيىء والأسوأ »[٨١] .

ويتناول القنصل البريطانى العام انعكاسات النظام القائم ، ويصور كيف أن الحكومة المصرية مخدوعة وسيهوى بها سوء ادارتها ، وأنه فى خلال ستة أشهر سيتأثر الحاكم بالحالة ، وعليه سيصغى للعلاج، وعندئذ سيتوغل الحماس الفرنسى ، وينقل توقعاته للندن ، فيذكر أنه ليس من المستبعد أن يحصل ممول بريطانى على عقد ايجار للترانزيت مقابل ثمانية أو عشرة آلاف جنيه استرلينى سنويا ، فاذا أضيف الى ذلك الادارة الرشيدة ، تصبح العملية رابحة ، ولكنه فى الوقت نفسه يبين أنه لا يغفل أن الحكومة المصرية ستعمل ما فى وسعها لاستبعاد الرأسماليين البريطانيين من المنافسة فى حالة عزمها على التأجير لتجار يونانيين أو ايطاليين حتى لو كان عطاؤهم أقل ، وذلك لأنهم لا يمتلكون التأثير السياسى كغيرهم[٨٢] . وواضح أنه يقصد الانجليز ، ومن ثم ينجلى أن كل طرف أصبح يفهم الآخر جيدا ، وبدا تحقيق التخطيط البريطانى صعبا .

وأمام العقبات راح مرى يبحث عن من يخدم الأغراض البريطانية، فاهتم ببدو سيناء — كانت شركة الهند الشرقية وادارة الترانزيت تستخدمهم ، اذ يوردون الجمال التى تنقل أمتعة المسافرين من والى السويس — وأشاد بهم لبالمرستون ، فيعتبرهم أصدقاء نافعين ، ويصرح

---

(81) Ibid.

(82) Ibid.

بأنه سينمى معرفته برؤسائهم حيث من المفيد وجود علاقة طيبة معهم ، وفى حالة غيابه عن القاهرة يقوم القنصل البريطانى فى الاسكندرية بأعماله ، وعند ضرورة حضوره ، فان الرسالة تصله فى سيناء مع هجان فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة(٨٣) • وبالفعل انتقل الى سيناء فى أواخر سبتمبر ١٨٤٨ وأدى المهمة(٨٤) •

ووجدت الخارجية البريطانية أن الالتجاء للباب العالى ربما يأتى بالمرغوب ، وعليه بعثت الى سفيرها فى استنبول ، وأرفقت مع كتابها صورة من خطاب مرى لها تحمل رؤيته تجاه الشكاوى من العمال الذين يقومون بخدمة الترانزيت ، وعرضت وجهة نظر الحكومة البريطانية بخصوص أهمية وسرعة وصول البريد للهند وأمان راحة المسافرين الذين يعبرن أرض مصر ، وأن ذلك لا يمكن الحصول عليه الا باستخدام أشخاص ذوى المام تام وخبرة كافية بالخدمة ، اذ يقومون بترتيب الاجراءات بنظام وهمة ، بالاضافة الى ضرورة أن يكونوا موضع ثقة ، والأوروبيون لديهم استعداد جيد وخاصة الذين لهم دراية بالعادات والطباع الانجليزية ، ثم تعرج الخارجية البريطانية الى أن ابراهيم يعد صاحب فكرة استخدام العمال المصريين ، وبما أنه قبض على زمام الحكم رسميا ، فسيكون أكثر تمسكا بما يراه بعد أن أصبح مطلق التصرف ، وأن الوقت حان لتتحرك الحكومة التركية وتمارس نفوذها على الحاكم الجديد وتتدخل لارغامه على أن يولى عناية للاقتراحات والرغبات البريطانية المقدمة له الخاصة بنظام الترانزيت ليفى بالغرض المطلوب وهو زيادة كفاءته مع تقليل نفقاته ، وفى نهاية التعليمات تعطى لندن سفيرها حرية التصرف وفقا لموقف الباب العالى(٨٥) •

---

(83) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Aug. 14, 1848, No 40.

(84) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 43.

(85) F.O. 78/732, F.O. (Palmerston) - Canning, F.O., Sept. 6, 1848, No. 108.

ويقوم كاننج بمجهوداته ويبلغ بالمرستون بأن السلطان عقد النية على العمل لتنفيذ الاقتراح الذى عرضه — الخاص بخدمة الترانزيت — وذلك بارسال مظلوم بك كمبعوث الى القاهرة ، مزودا بنصيحة للحصول على ترتيب مرض من السلطات المصرية ، وأنه لو اتبع هـذا المبعوث الطريق المستقيم ، فيمكن بمساعدة مرى الحصول على نتائج تكون فى الصالح البريطانى(٨٦) . ولكن لم يمهل العمر ابراهيم حتى يستمر عقبة فى طريق بريطانيا اذ ما لبث الأمر أن تمكنت من الموقف تدريجيا ونفذت سياستها فى عهد عباس التى تمثلت فى ترسيخ أقدامهـا على الطريق بتنفيذ مشروع السكة الحديد .

● ولاية الحـكم :

احتلت العلاقة بين الباب العالى وابراهيم موقعا فى السـياسة البريطانية ، فيذكر مرى لبالمرستون أنه استقى معلومات من مصـادر متعددة لقياس أبعاد نزعة الوزراء والباشوات العثمانيين تجاه والى مصر المنتظر ، فوجد منها ما يفيد أنهم سيكونون سعداء لانتهاز الفرصة التى يردوا بها له الاهانات التى ألحقها بهم فى الحملة السورية ، ويشـير القنصل البريطانى العام الى أنه لو كان لدى استنبول هذه النيـة ، فلا خوف على مصر ، لأن الدول العظمى ستتفق وتتعاون لتضمن لابراهيم خلافته لحكم أبيه بهدوء(٨٧) . ثم يسجل انطباعه « وعندما يستقر الأمر للوالى الجديد ، فلن يكون له نفس الثقل الذى كان يتمتع به محمد على لدى الباب العالى ، حيث يمتلك الأخير الفطنة الكاملة فى اسـتخدامه للرشوة ، وهذا ما يفتقده الابن ، فالخزانة خاوية ، وجميع مصـالح

---

(86) F.O. 78/736, Canning - Palmerston, Therapia, Nov. 17, 1848, No. 180.

مظلوم بك هو الوكيل الرسمى لابراهيم لدى الباب العالى .

(87) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No. 23.

الخدمة العامة عاجزة عن الدفع حتى أنه سيكون من الصعوبة بمكان زيادة الجزية »[٨٨] .

وبزغت مسألة الوراثة واستحوذت على الاهتمام ، وأدخلت فى حسبان التخطيط البريطانى ، وكان الحرص جليا على ضمان الهدوء والاستقرار لمصر لانعكاس ذلك على الطريق للهند ، وراحت المخاوف البريطانية تنمو بشأن أسرة محمد على ، فيعتبر مرى أن أساسها أقيم على رمال مما يحول بينها وبين الشعب ، وأن اقليما تسيطر عليه الفوضى أو يتعرض لاحتلال أجنبى يكون خطرا على الامبراطورية البريطانية فى الهند ، ويصرح بثقته فى أن نظام الوراثة فى الأسرة الحاكمة وهم أو ضلال ، وأن أخوة ابراهيم وأولاد أخوته ممقوتون بدون استثناء وغير أكفاء ، وكلهم على خلاف ، وبالتالى فعند وفاته سيعم الاضطراب والحرب الأهلية التى لن يخمدها الا التدخل الحربى الخارجى ، كما يبين أنه حتى أثناء حياته لن يتمكن من المحافظة على ملكه[٨٩] .

والواقع أن القلق انتاب القنصل البريطانى العام بشأن تصرفات الحاكم الجديد ، فيكتب للندن الكلمات التى تعبر عن التخوف « لا يمكننى تجنب الاعتقاد الذى ينمو تدريجيا فى ذهنى أنه تحت ادارة ابراهيم باشا فان علاقات الصداقة مع الحكومة ستكون أكثر صعوبة للابقاء عليها عما كانت عليه تحت حكم محمد على »[٩٠] . وبطبيعة الحال السبب واضح وأرجع لشخصية ابراهيم التى أدخلت الريبة على قلب المسئول البريطانى .

---

(88) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 3, 1848, No. 27.

(89) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo July 6, 1848, No. 30.

(90) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 30, 1848, No. 37.

ويواصل مرى تصور أبعاد الموقف أنه اذا كان السلطان رجلا ذا صفات سديدة ، ولو كانت حالة مناطق نفوذه الأوربية تسمح له بزيادة سلطته فيها ، يصبح من السهل عليه ايجاد الحل بتوجيه ضربته الشديدة لابراهيم وانتهاك بنود الوراثة وعدم السماح له بزيادة قوته الحربية ، وأنه — وفقا لما يراه الكثيرون — لو أرسل الى مصر باشا أو وزير لديه الذكاء ومعه بعض الأموال للقيام بتنفيذ تعليماته ، فلن يجد الا صعوبة قليلة لجذب معظم كبار الأتراك الى جانبه وطرد الأسرة الحاكمة من البلاد[٩١] .

ويبين القنصل البريطانى العام أنه اذا ترك ذلك جانبا وتمكن ابراهيم من التمتع باستمرار نظام الوراثة وبالحكم حتى وفاته ، فلن يستمر له الحال الى الأبد ، اذ لا يوجد طبيب فى مصر يضمن استمرار حياته أكثر من ثلاث سنوات ، نظرا لانحلال جسمه بسبب افراطه فى تناول الكحول مع تقدم العمر به مما يعرضه لمخاطر وأزمات . ويصل مرى الى الهدف من هذا العرض الشامل لتلك الملاحظات التى دونها لوزير الخارجية البريطانية ، وهو أن تعد الحكومة البريطانية وتستكمل الخطط التى ترى أنها ضرورية لاتخاذها فى حالة ما لو كان حكم ابراهيم جاء مبكرا أو حتمته طبيعة الظروف ، وأخيرا يركز مرة أخرى على مسألة الوراثة والخوف من أن تكون مصر مسرحا لحرب أهلية يقوم فيها البدو بالسلب والنهب ، مما يترتب عليه أن تنضم مباشرة الى الباب العالى ، أو تتدخل فرنسا التى تحيك لذلك عن طريق ارتباطها بتحصينات الاسكندرية ، أو يحتل الجيش البريطانى مصر « وهو شىء متوقع ليقضى على كل المخاطر ويؤمن المواصلات الأنجلوهندية »[٩٢] .

ويفهم من رد الخارجية البريطانية على مرى أنها مؤيدة لموقفه ،

---

(91) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 6, 1848, No. 30.

(92) Ibid.

مشيدة باستعداده للطوارىء ، معلنة وضع ملاحظاته محل العنـــاية ، ولكنها حملت وجهة نظر اختلفت فيها معه واعتبرتها الخط الذى يلـــزم اتباعه ، فرغم ايمانها أن نظام الوراثة وامكانية التنازع بين أفـــراد الأسرة المالكة — عقب وفاة محمد على — لم يعد نظاما عمليا نظرا لمـــا يعكسه من سوء على الأوضاع الداخلية ، الا أنها تذكر أن التســـوية الدولية أقرت وضع مصر كولاية من ولايات الدولة العثمانية وجزءا من أملاك السلطان ، ومن ثم لا يمكن أن تقوم فرنسا أو بريطانيا بالاستحواذ عليها الا فى حالة قيام أى منهما بالحرب مع تركيا ، وبعد التحقق من أن غزو أملاك السلطان اجراء حربى ، وأنه عند وقوع الأحداث المتوقعة واستدعاء الأمر تدخل القوة لاستتباب النظام فى مصر ، فالتدخـــل الوحيد الذى يعد قانونيا وفقا للحقوق والارتباطات القائمة ، هو تدخل السلطان باعتباره حاكما للبلاد ، وفى النهاية تصدر الخارجية البريطانية تعليماتها الى مرى ليستعلم عن السبب الذى جعل الحـــكومة المصرية تتخلى عن احترام الشروط الخاصة بوراثة باشوية مصر الممنوحة لأسرة محمد على[٩٣] • وكان القصد من ذلك أن محمد على لم ينته به العمر حتى يورث ، وأن المفروض استمراره فى الحكم ، ويكون بجواره مجلس يدير الأعمال[٩٤] •

وأرسل بالمرستون هذه الاجابة مرفقا بها كتاب مرى الى السفير البريطانى فى استنبول حتى يصبح لديه تصورا كاملا لوجهتى النظر[٩٥] • وعليه يقوم كاننج بدوره ويبعث الى وزير الخارجيـــة البريطانية بما استقاه من معلومات ، فيذكر أن رشيد باشا الصدر الأعظم أبلغه أن

---

(93) Ibid.

(94) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 134.

(95) F.O. 78/731, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 85.

سلفه صارم باشا — قبل احالته للمعاش بأيام — كتب باسم السلطان الى ابراهيم فى رودس يدعوه الحضور الى استنبول لتوليته مهام الحكم الكلى — وفقا لما جاء به فرمان ١٨٤١ من ضرورة أن يقلد الباب العالى الوالى الجديد منصب الولاية عند خلوه — واحلاله مكان محمد على الذى أصبح فى حالة ميئوس منها ، وينقل السفير البريطانى ما دار فى مقابلته مع رشيد باشا وكيف أن الأخير لا يوافق على هذا الاجراء ، ولكنه يجد صعوبة فى نصح السلطان ليتراجع عن ذلك(٩٦) ، وأنه — أى السفير — أجابه بأنه لا يرى مغبة من الزيارة حيث ستقضى على أى شك فى مسألة الوراثة ، كما ستجعل الوالى الجديد يكف عن موالاة التجهيزات الحربية التى أنهكت مصر(٩٧) .

وفى نفس الوقت يبين كاننج أنه بتملك ابراهيم ولاية الحكم واستئثاره الشرعى بالسلطة العليا بينما لا يزال أبوه على قيد الحياة ، يخلق مناخا معيبا ، ويعرضه هو والباب العالى لنقد لاذع ، وأن أقل الوسائل ضررا جعله وصيا أو نائبا لمصر مع اعطائه السلطة الكاملة لادارة الأعمال — كما عقد أبوه النية على خلافته له — ولكن يكون التقليد بصفة اعتبارية أى اسمية ودون أن يترك « الباشا العجوز » جانبا ، وينتهى الى أنه من الأوفق للسلطان ألا يقحم نفسه فى مسائل أو يحتضنها قبل أن يزن الأمور ، ويختم قوله « وحتى الآن لم أسمع ما هو القرار الذى اتخذ ، ولكن ابراهيم باشا فى طريقه الى الوصول هنا فى أية لحظة ، فهو سيغادر رودس بمجرد الانتهاء من مدة الحجر الصحى »(٩٨) . وتوافق الخارجية البريطانية على النصيحة التى قدمها

---

(٩٦) من المعروف أن السلطان عبد المجيد تولى عرش السلطنة عقب وفاة أبيه السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ١٨٣٩ ، وكان فى مقتبل عمر الشباب مما أثر على سلوكه .

(97) F. O. 78/734, Canning - Palmerston, Therapia, Aug. 18, 1848, No. 74.

(98) Ibid.

ممثلها للصدر الأعظم[٩٩] ، وبذلك يتأكد أن الرأى البريطانى لم يكن ليؤيد استيلاء ابراهيم على الحكم تماما فى حياة أبيه •

وصدرت تعليمات كاننج الى بسانى Pisanni للقاء ابراهيم عقب وصوله ، وتمت المقابلة ، وقدم له فيها المسئول البريطانى مذكرة برغبات لندن ، فقرأها وأبدى عدم استعداده لاعطاء الاجابة الا بعد عودته لمصر عندما يناقشها مع مستشاريه ، وأدار دفة الحديث حول غبطة السلطان وسعادته لتخويله اياه حكم مصر ، وأنه — أى السلطان — أهداه صورته فى اطار مرصع بالماس[١٠٠] • وحرص السفير البريطانى على اجراء حوار مع حاكم مصر الجديد ، ونقله الى بالمرستون الذى قام بالرد عليه معلقا على شخصية ابراهيم ، ذاكرا أنه يبدى اعجابه بانجلترا ويتكلم عن الصداقة الحقيقية بينه وبينها والرغبة الأكيدة فى توثيق العلاقات معها ، ولكن الواقع أنه يظهر غير ما يبطن حيث يترسب فى أعماقه الدور الذى قامت به تجاه طموحه فى اليونان وسوريا ، ثم يتحول وزير الخارجية البريطانية للحديث عن فرنسا مشيرا الى أن علاقتها التجارية بمصر ليس لها الوزن بعكس الوضع البريطانى ، مبينا أنه لابد من التحلى بالصبر ، مسجلا القول « ان السياسة الحكيمة الوحيدة للحكومة المصرية هى اتخاذ الطريق المستقيم لضمان المصالح البريطانية فى مصر ، وللثقة فى قوة بريطانيا وعدالة مطالبها »[١٠١] • ومن ثم ينجلى التخطيط الهادىء الذى اتسمت به السياسة البريطانية •

---

(99) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 20, 1848, No. 120.

(100) F.O. 78/735, Pisanni - Canning, Pera, Sept. 2, 18448, No. 92.

(101) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 29, 1848, No. 137.

وانتهت زيارة ابراهيم لاستنبول وغادرها في ٣ سبتمبر ١٨٤٨ بعد تقلده باشوية مصر رسميا ، ويذكر كاننج لبالمرستون — في اليوم التالي — أن المجلس العثماني توصل الى هذا القرار بامتعاض وبعد الكثير من التردد ، وأن ابراهيم كان قد قرر اما أن يحصل على كل شيء أو لا يحصل على شيء ، وأعرب عن أن يمنح له فرمانا يجعله نائبا مع الاعتراف بأحقيته في الوراثة ، ولم يقبل حتى فرمانا يعطيه الحق المباشر فيها ويكون مصحوبا بملحق أو مرسوم ينص على التنازل عن السلطة العليا في حالة شفاء محمد على واستعادته لصحته وقواه العقليـــة ، ويحلل السفير البريطاني الموقف بأن السلطان التزم بكلمته لابراهيم ولم يكن راغبا في اظهار استيائه ، ثم يعرض رأيه بشأن تدخل الدول لتوضيح مسألة الوراثة(١٠٢) .

وفي نفس اليوم يبعث السفير البريطاني في استنبول للندن يبلغها أنه لم يكن له اتصال رسمي مع الباب العالي فيما يتعلق بتولية ابراهيم ، الا أن الصدر الأعظم أجرى معه مشاورات — على طول الخط — بصفة سرية ، ثم ما لبث الأمر أن اتخذت شكلا علنيا بناء على أمر السلطان بقصد الحصول على رأي مناسب منه ، ويتوقف كاننج ليبين أن السلطان يفكر في اتخاذ خطوة يراعي فيها الدول التي وقعت على معاهدة يوليو ١٨٤٠ ، وأن وزراءه يريدون العمل على راحة تفكيره ويخلقون المنـــاخ الذي يدعم استمرار ثقته فيهم(١٠٣) .

ويتابع السفير البريطاني القول بأنه من المهم أن يوضع في الاعتبار أن الصدر الأعظم يجاري السلطان ، وأن للسفارة البريطانية فضلها على كليهما ، أيضا يوضح أنه لم يكن راغبا في التصديق على تصرف ليست

---

(102) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 93.

(103) Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 94.

هناك حاجة ضرورية ملحة له لتجنب الاعتراضات التى فرضت نفسها ، تلك التى فندها رشيد باشا للسلطان ، وأنه — أى السفير — قدم بعض الاقتراحات أهمها « وجوب ضمان مبدأ الوراثة بقبول وعد الباشا (ابراهيم) بأن يعتزل فى حالة استعادة أبيه لصحته واعطاء الدول هذا التفسير مع التأكيدات المماثلة اذا ما طلبت » • ويذكر أن اقتراحاته وضعت فى الاعتبار عند مناقشة الأمر فى القصر مع المجلس ، ويختم كلماته « وانى سعيد لأنها (الاقتراحات) لقيت الترحيب من السلطان والوزراء دون أن يشركونى فى المسئولية »[١٠٤] • ولا يعنى ذلك أن الباب العالى قد استسلم تماما ونفذ التوجيهات البريطانية ، حقيقة أنه طلب النصيحة وطرحها على بساط البحث ، لكنه استقى منها بقدر وبما لا يصطدم مع رغبة ابراهيم •

ولم تعارض الخارجية البريطانية فى اسناد باشوية مصر للوالى الجديد ، وصرح بالمرستون أنه طالما أن ذلك يعبر عن وجهة نظر السلطان فقد وجد فيه ما يناسبه ، وأن اعترافه بابراهيم بمباشرة حكم مصر هو اعتراف عملى وقوى وكامل ، كما أنه تخطى المعارضة، كذلك فالتسوية المتفق عليها عام ١٨٤١ تعطيه هذا الحق • ويتعرض الوزير البريطانى للسلطة التى يتمتع بها ابراهيم ، وكيف استعجل السلطان لانتزاع الملك من أبيه ، وأن ما تم هو أيضا فى صالح السلطان ، حيث يقر نفوذه فى اقصاء محمد على لعدم صلاحيته للحكم رغم بقائه على قيد الحياة وتعيين خلف له ، وأنه لو اتبع نظام الوراثة لخلقت صعوبات كبيرة ، ولترك « الباشا العجوز » كما هو بينما تسلم ادارة الحكم لمجلس ، وأن الباب العالى وضع فى اعتباره أن بعض الباشوات قد يكونون طغاة وسيئى التصرف ، وذلك مما أسهم فى تنصيب ابراهيم[١٠٥] •

---

(104) Ibid.

(105) F.O. 78/732, Palmerstos - Canning, F. O., Sept. 29, 1848, No. 134.

وبعث الباب العالى صورة الفرمان الذى صدر فى أول سبتمبر ١٨٤٨ باحالة ولاية مصر وملحقاتها لابراهيم الى كاننج ، وكان له شكله المتميز ، اذ سجل فى بدايته مرض محمد على الذى ابتلى به وأضناه وأعياه وأعجزه عن ادارة شئون البلاد ، وطلب ابراهيم تولى هـذه المهمة ، ثم عرج الفرمان على أهمية مصر فى الولايات العثمانية ، وأنه من غير اللائق خلوها من وال ، وعليه أسندت لابراهيم ، ويعـدد مناقبه من كمال خبرة ودراية ، ويطلب منه افراغ ما فى الوسع من الاقـدام والغيرة وبذل قصارى الجهد لحسن ادارة مصر ، واتخـاذ التدابير اللازمة لضمان رفاهية سكانها وأسباب راحتها وحماية أهلها وصيانتها مما يخل باستتاب الأمن وطمأنينتها ، وينتهى الفرمان الى أنه باتباع هذا الطريق تزداد ثقة السلطان بالوالى الجديد ويعتمد عليه فى جميع الوجوه[١٠٦] • وبذلك يتبين أن الفرمان استبعد مسألة استعادة محمد على للحكم ، ولم تتحقق وجهة النظر البريطانية فى هذا الشأن •

وانعكس الضيق على كتابات مرى لبالمرستون بسبب تلك المكاسب التى حصل عليها ابراهيم من زيارته لاستنبول ، فيذكر أنه قد حسـن مركزه مع الباب العالى وتمتع بكثير من رضا السلطان أكثر مما كان ينتظر أن يحصل عليه ، وأن ذلك تحقق دون تبذير فى تقديم المـال والهدايا مثلما قدم محمد على أثناء زيارته الأخيرة لتركيا[١٠٧] • ومضى رصد تحركات ابراهيم ، فعقب وصوله الى الاسكندرية فى ٩ سبتمبر

---

(106) F.O. 78/735. Traduction de la Copie remise par Aali Pacha ä son exllence Sir H. Canning, 5 Sept. 1848, No. 107.

وقام السفير البريطانى بارسال ترجمة الفرمان للندن ،

Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept, 13, 1848, No. 107.

(107) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 34.

قام محمد على بالزيارة عام ١٨٤٦ ونال الحظوة من السلطان الذى منحه الرتب .

كتب القنصل البريطانى بها لحكومته يخبرها بذلك النبأ ، وبأنه — أى الوالى الجديد — انتقل للقاهرة فى اليوم التالى وحالته الصحية تزداد سوءا[108] .

والواقع أن مسألة مرض ابراهيم أثارت القلق البريطانى من جديد ، فبيين مرى لبالمرستون مدى انعكاس النتائج على حالة الاستقرار والأمن فى مصر ، وتأثير ذلك على حياة البريطانيين وممتلكاتهم من ناحية ، وعلى التجارة البريطانية والمواصلات مع الهند من ناحية أخرى ، ويعدد الأخطار المحدقة والتى تتلخص فى حدوث حرب أهلية وما يتبعها من أحداث شغب ، وعليه فانه يرى من الضرورى قيام الدول الأوربية بالتفاهم مع الباب العالى بخصوص موضوع الوراثة فى حالة وفاة ابراهيم ، ويعرض مسألة اصدار تعليمات للقائد العام فى البحر المتوسط بارسال بعض السفن مباشرة الى الاسكندرية لحماية الرعايا البريطانيين والمصالح ، وفى نفس المكاتبة يتعرض لأسماء المرشحين لتولى الحكم — أحمد ، عباس ، سعيد — ودرجة قرابة كل منهم لمحمد على[109] .

وكان السفير البريطانى باستنبول قد بعث لبالمرستون بما استقاه من مصدر مسئول موثوق به — يتمثل فى مظلوم بك — عن طريق رجال مخابراته ، أن ابراهيم وضع فى ذهنه استبعاد عباس وسعيد من الوراثة ، واعطاء الصدارة لابنه أحمد المتواجد فى باريس . ولم يكن كاننج ليؤيد هذا الاتجاه ، وسجل رأيه مشيرا الى أن مستقبل رفاهية

---

(108) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Alex., Sept. 13, 1848, No. 23.

(109) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 43.

أحمد رفعت هو الابن البكر لابراهيم ، وعباس هو ابن طوسون بن محمد على وأكبر أفراد العائلة سنا ، وسعيد هو ابن محمد على .

مصر مرتبط بعباس وسعيد[١١٠] . وكان فرمان ١٨٤١ قد حدد أن تنتقل ولاية مصر بالارث لمحمد على وأولاده وأولاد أولاده الذكور بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر ، وذلك مما سبب الصراعات .

ويأتى جواب الخارجية البريطانية الى قنصلها العام فى مصر ليحمل تصورها ازاء تدهور صحة ابراهيم وامكانية قيام منازعات بشأن وراثة ولاية مصر ، فتصرح بأنه من الأفضل ترك الفصل فى المسألة للسلطان ليقرر خليفة ابراهيم عقب وفاته ، واستعرضت تفسير مرى فى أن أحمد أحق المطالبين بالولاية « وفقا لنوايا ومفهوم من وقعوا المعاهدة (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، لأنه من المؤكد أن المقصود فى الوريث أن يكون الأقرب من الذكور من نسل آخر باشا توفى وليس لأقرب الذكور لورثة محمد على »[١١١] . كما يبعث بالمرستون الى كاننج بالملاحظات فى هذا الصدد[١١٢] .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه لم تكن هناك خلفية طيبة توثق العلاقة بين الجانب البريطانى وعباس ، فقد كتب عنه بارنت فى خريف عام ١٨٤١ أثناء شغله منصب حاكم القاهرة أنه يأتى بتصرفات فاضحة ومنتظر عزله من وظيفته[١١٣] ، ويعود فى ربيع عام ١٨٤٥ ليصفه بعدم

---

(110) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 14, 1848, No. 109.

(111) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Oct. 28, 1848, No. 24.

ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أن أحمد بن ابراهيم كان فرنسى المشرب ، وفى ذلك ما ينفر بريطانيا منه .

(112) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 3, 1848, No. 162.

(113) F.O. 78/451, Barnett - Aberdeen, Cairo, Oct. 18. 1841, No. 23.

معروف عن عباس أنه كان يتبع طريق الهوى ، وفى الوقت نفسه اتسمت شخصيته بالقسوة والجفاء والعبوس .

الكفاءة[١١٤] • ولكن مع الصلابة التى وجدتها بريطانيا فى ابراهيم أيقنت أن تحقيق مصالحها يكمن وراء عباس ، خاصة بعد ادراكها لموقفه السلبى من فرنسا بعكس محمد على وابراهيم وابنه ، هذا بالاضافة الى ذكاء مرى الذى مسك بمفتاح الطريق الموصل اليه ، وبالتالى خضعت تحركاته للرقابة البريطانية ، وكان يتولى فى ذلك الوقت رئاسة كل من ديوان القاهرة وادارة الترانزيت[١١٥] •

ويبعث مرى لوزير الخارجية البريطانية يعلمه أن عباسا غادر مصر الى مكة بعد حصوله على تصريح من الوالى ، ثم يتكلم عن تدهور صحة الأخير ، ويبلغه ألا يتعجب اذا سمع نبأ وفاته قبل « الباشا العجوز »[١١٦] • وأقلت عباس فى رحلته باخرة بريطانية ، وقد أتيحت الفرصة للتقرب اليه ، وتولت المهمة شركة الهند الشرقية ، حيث رتبت الأمور لتلبية كافة طلباته من السويس الى جدة[١١٧] • ومضى القنصل البريطانى العام يعد الأمور لمواجهة الموقف فى حالة وفاة ابراهيم ، فيكتب لحكومته مفيدا بأن قناصل الدول — رغم عزوفهم عن التدخل فى شئون مصر الداخلية — سيدعون لعقد مجلس لاتخاذ الاحتياطات لضمان أمن الأوروبيين المقيمين ، وتطبيق مواد الخط الشريف الصادر عام ١٨٤١ فيما يختص بالوراثة فى أسرة محمد على ، ووضع حكم مصر فى أيدى عباس مؤقتا • وتقوم الخارجية البريطانية بالرد على مرى بشأن ذلك الاقتراح معربة أنه — كما بدا لها — الأفضل فى هذه الظروف ، ثم تصرح بأن السلطان صاحب القرار فيمن يتولى حكم باشوية مصر وفقا لفرمان ١٨٤١[١١٨] •

---

(114) F.O. 78/623, Barnett - Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(115) F. O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 44.

(116) Ibid.

(117) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 5,1848, No. 49.

(118) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Nov. 28, 1848, No. 27.

وبذلك يتضح أن بريطانيا عقدت العزم على تثبيت حق عباس فى الولاية ، فى الوقت الذى تمسكت فيه بالوضع الذى أقره السلطان فى نظام الوراثة حتى لا تعطيه الفرصة للتغيير ، وقد واصل السفير البريطانى فى استنبول اتصالاته بالعديد من رجالات الحكومة العثمانية بهذا الخصوص ، كما نقل له بالمرستون وجهة نظر مرى السابقة ورد لندن عليه[١١٩] ، حتى تنصب المجهودات فى تيار واحد • وراحت الخارجية البريطانية تتلقى بعض المراسلات ممن وجلت قلوبهم من توقع الاضطرابات فى مصر وتدخل الباب العالى[١٢٠] • ويبين هذا مدى الحرص على أبعاد أية تأثيرات مضادة للمصالح البريطانية •

ويوالى مرى النشرات الصحية لابراهيم ، ويبعث بمحتوياتها الى بالمرستون معلقا على أن حالته ميئوس منها[١٢١] • وفى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ حدث ما كان متوقعا ، فقد فاضت روحه على أثر تسمم معوى (غنغرة الأمعاء) بعد عمر بلغ التاسعة والخمسين سنة ، وعلى الفور اجتمع المجلس ونصب عباسا ، وبلغ ليعود بدون تأخير ، وتولى سعيد الحكم مؤقتا لحين عودته ، والتقى مرى بأرتين بشأن المحافظة على هدوء البلاد ، وكتب الى وزير الخارجية البريطانية يسجل الأحداث المتوالية ونطقت كلماته بالسعادة[١٢٢] •

واستمر فى التعبير عن مشاعره وغبطته من جراء اختفاء ابراهيم

---

(119) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(120) F.O. 78/767, Briggs - Palmerston, East Sheen, Nov. 23, 1848, F.O. - Briggs, F.O., Nov. 25, 1848.

ينتمى بريجز الى التجار البريطانيين ، وقد تولى مهمة البضائع المصدرة من مصر لبريطانيا ، ومن ثم اصبحت له علاقات وطيدة ومصالح داخل مصر ، واعتبر كوكيل للوالى فى لندن حيث قام بمهام شراء احتياجاته منها .

(121) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 6, 1848, No. 50.

(122) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No 51,

من الساحة ، وفى النهاية أعطى تقييما لتلك الشخصية ، فذكر أنه حكم مصر بقوة ، ومن صفاته العناد والقسوة المريرة حيث يظهرهما فى كثير من الأحيان لتأصلهما فى طباعه منذ صباه ، وان كان يخفيهما أحيانا خشية أبيه ، ثم يصف يوم وفاته بأن كل الوجوه — كما رآها — من أكبر باشا الى الفلاح الذليل كانت راضية مطمئنة ، فالجميع أحس بأن عبئا قد انزاح عن كاهله ، ويحلل السبب أن ابراهيم استنبط الوسائل التى نفرت جميع الطبقات منه بطمعه ، وبينما استنزف موارد انتاج البلد لتنمية اجبارية للجيش ، فانه خسر محبة الجنود بخفض مرتباتهم الزهيدة التى يتقاضونها ، ويختم بقوله انه لو قدر أن يكتب على شاهد قبره « لم يمت أحد مستحقا للدمع » لأفصح ذلك عن الواقع[١٢٣] .

حقيقة أن ذلك الانطباع يحدد الموقف البريطانى فى التحامل على ابراهيم ، لكنه يحمل بين طياته أمرا ملموسا عانت منه مصر . وهكذا تنجلى الرؤية البريطانية تجاه هذه الشخصية ، فبعد أن لمست — فى البداية — أنها السند الذى يعتمد عليه ، تحول الميزان وانقلبت عليها عندما أيقنت محاربتها لمصالحها . وكان نبأ وفاة ابراهيم قد بلغ للندن عن طريق نائب الأميرال البريطانى من نابولى قبل أن يصلها من الاسكندرية[١٢٤] . وقام كاننج بمساعيه لدى الباب العالى ، وبعث بنتائجها الى بالمرستون[١٢٥] ، تلك التى أسفرت عن صدور فرمان تولى عباس ولاية مصر قبل انقضاء شهر على وفاة ابراهيم ، وتحققت السياسة البريطانية المرسومة فى هذا المضمار لتواصل مسيرتها وتحقق غايتها مع الحاكم الجديد ، الذى وجد فيها هو الآخر أداة لتنفيذ مآربه، وان كان ذلك قد واجهته بعض الصعوبات لكنها ذللت تدريجيا .

Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188.

(123) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No. 52.

(124) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(125) Ibid, Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188. شاركه فى تلك المساعى باقى السفراء لدى الباب العالى .

خاتمـــة :

مثلت فترة الدراسة مرحلة مفصلية بين ما قبل عام ١٨٤١ وما بعد عام ١٨٤٨ ، ووضحت فيها اتجاهات بريطانيا نحو مصر ، وكيف سعت فى ألا تكون لتلك الباشوية قائمة من ناحيـــة ، وأن تواصـــل الزحف والتغلغل من أجل الاستحواذ على النقاط لصالحها والاجتهاد فى ابعاد المؤثرات الفرنسية من ناحية أخرى • ولكن رغم التفانى من أجـــل تحقيق الغرض ، الا أنها وجدت العقبات ، اذ استمر محمد على فى تعنته ، وسار ابراهيم على دربه وزاد عنه ، وبالتالى فشلت فى النفاذ اليه أو الوقوف أمامه • ولم تثمر هذه المرحلة للصالح البريطانى ، ومع ذلك بدا فيها شغف بريطانيا ورغبتها الملحة فى الاستئثار بمصر ، كما أنها مهدت الطريق للمرحلة التى أعقبتها بعد أن وقع الاختيار على خلافة عباس الأول للحكم وتسلمه الولاية ، وقد استغلت نفوره من فرنســـا وضغطت عليه ، ومع أنه لم يستســـلم لها فى البـــداية ، لكنه سرعان ما احتاج اليها لتقف بجواره أثناء أزمة التنظيمات العثمانية ، وبالتالى أيقن أن مصلحته مرتبطة بها للمحافظة على حقوقه لدى اســـتنبول ، وللحصول على المزيد منها • هذا وقام قنصلها العام فى مصر بدوره الايجابى فى التقرب منه ، وأسفرت النتيجة عن تحقيق توغلها من خلال مشروع السكة الحديد ، أيضا أمكنها استبعاد المشروع الفرنسى الخاص بقناة السويس •

وأصبح لبريطانيا سند تتكىء عليه ، ومع هذا فشلت فى الوقوف أمام المشروع الفرنسى اذ وافق عليـــه سعيد الذى التجـــأ للقروض الفرنسية ، ومن ثم سعت لدى الباب العالى لعرقلة التقدم الفرنسى ، مما ألجأ والى مصر الى امتصاص غضـــبها وتليين سياســـتها ، وذلك بالحصول منها على قرض مالى وانشاء بنك مصر « الانجليزى » ومنحها امتياز شركة سكة حديد الرمل بالاسكندرية مقابل تغاضيها عن مشروع

القناة • ولم تكن تسعد بهذا التعويض ، حيث اعتبرت الوجود الفرنسي هو المعرقل لمصالحها ، وعليه قررت توطيد نفوذها فى مصر توطئة لخلاصها لها ، واعتمدت على الامتيازات الأجنبية من ناحية ، وقضية الديون من ناحية أخرى ، هذا بالاضافة الى الأدوات التى استغلتها وتمثلت فى ضخامة رؤوس أموالها المستخدمة فى مصر اذ كثرت شركاتها التى تخدم استراتيجيتها على المدى الطويل ، وتعددت بنوكها ، وارتفع عدد رعاياها والتحق الكثير منهم بأهم الوظائف •

وواتت بريطانيا الفرصة مع اسماعيل بعد تحوله عن فرنسا عقب هزيمتها فى الحرب السبعينية ، فأغدقت عليه القروض ، وباع لها أسهم مصر فى قناة السويس — ارتبطت مصالحها ارتباطا وثيقا بها — والتجأ اليها لتعينه على تخطى الصعوبات المالية ، فأرسلت بعثة كيف Cave لتسجل التطبيق العملى للتدخل البريطنى فى شئون مصر ، وشاركت فى صندوق الدين • ولما لم تكن لترضى بالمساواة فى النفوذ مع الدول الأوروبية ، مارست ضغطها ، ونتج عنه تشكيل لجنة مثل فيها جوشن Goshen الدائنين الانجليز وجوبير Joubert الدائنين الفرنسيين، تمخض عنها انشاء المراقبة الثنائية ، وما لبث الأمر أن تحول الاشراف المالى الى تدخل سياسى سافر بتشكيل الوزارة التى دخلها وزير انجليزى وآخر فرنسى •

ومما يلفت النظر هذه المشاركة الفرنسية التى سلمت بها بريطانيا ، وكيف أنها لم تقصها وفقا لمنهجها • الواقع أن ظروف مصر تحولت سريعا للصالح الأجنبى ، وأخضعها حكامها للمؤثرات الأوروبية قاطبة ، تلك التى أصبحت مرتعا لها ، مما سبب تبرما لبريطانيا ووجدت أنها بائتلافها مع فرنسا يمكنها الحد من الدولية بل وربما التخلص منها ، وفى الوقت المناسب تستبعد حليفتها ، وخاصة أنه فى هذه الفترة ، بالاضافة الى الثقل الذى تمتعت به فى مصر وما امتلكته من قوة بفضل الرقابة التى أمسكت بها ، فان مكانتها خارج مصر قد ارتفعت بتنازل الدولة العثمانية

لها عن قبرص ، وبنتائج مؤتمر برلين الذى أوجد الوفاق بينها وبين فرنسا • ومن هذا المنطلق كان التعاون بينهما لتحقيق المصلحة المتبادلة — شملت تونس ومصر — بعد أن وضحت معالمها وتحددت ، ومضت الجهود لاخراجها الى حيز الوجود •

وواصلت الدولتان طريقهما ، وعندما أراد اسماعيل أن يلعب لعبته باستغلال الحركة الوطنية ضد نفوذهما ، سعتا لدى الباب العالى فعزله ، وولى مكانه توفيق الذى خضع لسيطرة ممثليهما حتى قامت الثورة العرابية ، فوجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية التى تنتظرها منذ أكثر من تسعين عاما ، فاستخدمت أساليبها سواء فى باريس أو استنبول أو القاهرة ، ونجحت فى هزيمتها وحققت مرادها واحتلت مصر عام ١٨٨٢ لتبدأ مرحلة جديدة لها قواعدها المرسومة •

مصادر الدراسة

Public Record Office, Kew, Surrey, England. F. O. 78, Turkey.

- Vol. 451 (1841), Consuls Colonel G. LLoyd Hadges, Lieut — Col. C. J. Barnett, Diplomatic & Consular.
- Vol. 541 (1843), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 582 (1844), Egypt : Consul general, Diplomatic, Colonel Barnett, Stoddart.
- Vol. 623 (1845), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 661 B (1846), Egypt : Cossuls at Alex. Barnett, Stoddart, Diplomatic.
- Vol. 662 (1846), Egypt : Consuls at Alex. Mr Murray Diplomatic.
- Vol. 706 (1847), Egypt : To Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 707 (1847), Jan. — June, Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 708 (1847), July — Dec., Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 731 (1848), Feb. — Aug., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 732 (1848), Sept. — Dec., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 734 (1848), Aug., Sir S. Canning.
- Vol. 735 (1848), Sept., Sir S. Canning.
- Vol. 736 (1848), Oct., Nov., Sir S. Canning.
- Vol. 756 (1843), Egypt : Consul general Murray, Diplomatic.
- Vol. 757 (1848), Egypt : Consul general Murray Diplomatic Drafts.
- Vol. 759 (1848), Consuls Chasseaud Gibbert, walne, Surer, Maltass, Egypt, Dr. Farquhar, Reverend E winder, Foreigs Various Consular Demostic.
- Vol. 765 (1848), Jan. — March, Damestic Various.
- Vol. 766 (1848), April — Aug., Domestic Various.
- Vol. 767 (1848), Sept. — Dec., Domestic Various.